حاصل على جائزة الإنجاز العالمي للخيال 1984



رواية

جنة الشيطان

صراع في وكر الحشاشين

إي. هوفمان برايس

عنوان الكتاب:
جنة الشيطان
اسم المؤلف:
إي. هوفمان برايس
اسم المترجم:
فريق عمل بوملحه للنشر والتوزيع
التصنيف العمري:
17+
الترقيم الدولي:
ISBN 978-9948-711-62-9
رقم إذن الطباعة:
MC-02-01-3400227

حديقة الشيطان

تثير الرعب والسحر، حيث تلتقي الأجواء الشرقية الغامضة بأحداث خارقة للطبيعة، في رحلة لا تنسى إلى عالم من السحر الأسود والمكائد القاتمة.

هل تجرؤ على دخول هذه الحديقة؟

تحذير: قد لا تخرج كما دخلت!

الجلد الخفي

خلت الطاولات في مقهى "دو ثياتر"، بعد أن انتهت فقرة الأكواب المترنمة، والأغاني المصاحبة للجيتار منذ مدة طويلة، وكانت مدينة "بايون" بجدرانها الرمادية تغفو تحت ضوء القمر مثل راقصة منهكة من الخمر وهي مرصعة بالجواهر في حديقة غادرها الموسيقيون، هكذا تنام "بايون" كل ليلة اكتمال قمر لأكثر من تسعة عشر قرناً عند ملتقى نهري "نيف" و"أدور" تحرس الطريق إلى إسبانيا.

جلس شخصان في غرفة بالطابق الثاني من منزل يواجه الشارع المحاذي لسور المدينة، أحدهما كان مسناً حنطي البشرة، ذا شاربين رماديين مقلوبين، وعينين متقدتين تحت حاجبين كثيفين، والآخر كان أصغر منه بنصف عمره تقريباً، كان نحيلاً عريض الكتفين، بملامح برونزية صلبة كحجارة القلعة، مع ندبة سيف تمتد من عظم خده إلى الذقن تقريباً.

نهض الأصغر من مقعده كفهد يغادر قفصه وتجول في الغرفة، توقف عند النافذة يتأمل ضوء القمر الساطع الذي يتسلل ببطء من ممرات مليئة بالأشجار، ويغزو الظلال التي يلقيها سور المدينة عبر الخندق الجاف المحيط به، عاد إلى مكانه وألقى نظرة على ساعته، وقال: "إنه متأخر الليلة أكثر عن المعتاد يا بيير". كان صوته متعباً من غضب أحبطه، وأكمل: "هل تعتقد أنه قد يتخلف اللية عن الحضور؟".

هز "بيير دارتوا" رأسه الرمادي وتنهد: "لماذا يعذبها؟ نجلس هنا مثل الدمى، أنا وأنت، وبسبب ماذا؟ انظر هناك..."، وأشار إلى الأختام على الباب إلى يساره، فأردف: "لا يستطيع اختراق الباب أو النافذة دون كسر تلك الأختام!".

صاح الأصغر: "لكنه فعل، بحق السماء!". واستأنف "جلين فاريل" تجواله على طول سجادة بخارى التي تغطي الغرفة، وأشار بيده بغضب عاجز، ثم استمر: "ولكن كيف يا بيير؟ ولماذا؟".

لف "بيير دارتوا" شاربه، وهز رأسه مرة أخرى، أشعل سيجارة، وعاد "جلين فاريل" إلى مقعده، وأمسك ببقايا السيجار الذي وضعه على ذراع الكرسي، وقال: "لم يكن بإمكاننا النوم أثناء الحراسة دون أن يلاحظ أحدنا شيئاً"، ثم استأنف "فاريل" حديثه، كان صوته رتيباً من تكرار عبارة قالها مراراً حتى بدأ هو نفسه يشكك فيها: "ولو فعلنا....". نظر إلى الأختام الشمعية على الباب، وأكمل: "لم يكن بإمكان تزوير تلك الأختام، وختمك مغلق عليه في خزنة البنك كل ليلة، لم يكن بإمكانها الهروب".

وافقه "بيير دارتوا": نعم، لم يكن بإمكانها الهرب، لكن شخصاً... أو شيئاً... دخل".

عدّد "جلين فاريل": "ابن عرس، قطة، أفعى، قد تنزلق من بين تلك القضبان، لا شيء أكبر، بالتأكيد لا شيء كبير بما يكفي لـ... يا إلهي! اسمع!".

وقفوا بوجوه قاسية ومرتعشة عند الباب المغلق المختوم، سمعوا أنيناً وبكاءً، ثم صرخات امرأة تحاول كتم صراخها، وقال "جلين فاريل": "أعطني المفتاح".

ثم فتح الباب بقوة محطماً الأختام، وقاطعاً الحبل الممتد من اللوحة إلى الإطار، تبعه "بيير دارتوا"، توقفوا على بعد خطوات قليلة من العتبة، وقال "جلين فاريل" عندما أضاء الأنوار: "انظر، بحق الجحيم، انظر!".

وأشار إلى المرأة التي كانت مستلقية على وجهها على السرير الواسع المزين بالستائر، كانت تتلوى وتئن بانتظام، تتألم وكأنها تتعرض للضرب، ثم ترتعد وتسترخي، همس "جلين فاريل": "يا رب! كأنني أسمع صوت السوط".

ثم قفز للأمام ومد ذراعه وكأنه يحاول صد الضربات التي تهوي على كتفي الفتاة العارية، وتراجع بعدها هازاً رأسه، وهمس بيأس: "إذا كنا لا نراه، كيف يمكننا إيقافه؟".

وقفوا مفتونين مذهولين ومرعوبين، يشاهدون فتاة جميلة تُجلد بسوط غير مرئي، يرون الخطوط الحمراء وهي تظهر وتتقاطع على كتفيها، وتظهر تحت طيات الحرير الرقيقة لثوب نومها، هز "جلين فاريل" رأسه بحيرة ويأس: "انظر إليها! ثوبها لم يتحرك ولو بمقدار شعرة، ولكن السوط ترك علامة أخرى! بيير، هذا مستحيل! كان ينبغي أن يُقطع الثوب من شدة الجلد، أو أن المنطق يقول بأن لا شيء يضربها حقاً. أو أننا..... أو أننا فقدنا عقولنا!".

قال الفرنسي المسن وهو يمسك بذراع صديقه، رغم أنه كان يرتعد تعاطفاً مع الفتاة التي تتلوى تحت السوط الخفي، إلا أن صوته كان أكثر هدوءاً من صوت "جلين فاريل": "انتظر، دعنا ندرس هذا الشي، وسواء كان رجلاً أم شيطاناً، سنفصل جلده في النهاية!".

فرد "جلين فاريل": "خذ أنت الشياطين يا بيير، وأعطني أي عدد من الرجال الذين تعتقد تعتقد أنهم متورطون في هذا! سأ.... مهلاً، ما هذا؟".

انحنى بجانب السرير، وأشار إلى "دارتوا" وهو يهمس متوتراً: "اسمع هذا، بيير!".

سمعوها تقول: "جنة الشيطان".

صاح "جلين فاريل": "يا للعجب! جنة الشيطان، وهل سمعت ما قالته بعد ذلك؟"، وقبل أن يتمكن "دارتوا" من الرد، قال: "لقد انتهى الآن".

توقفت الفتاة النائمة عن التلوي والبكاء، وتحولت صرخاتها إلى همسات وقد غلبها النعاس، نظر الرجلان إلى بعضهما للحظة، وقال "دارتوا": "نعم سمعتها، رغم أني لم أسمع أحداً يستخدم هذه اللغة البذيئة منذ سنوات، إنها تليق بإحدى الراقصات في ملهى أبو أسود في القاهرة، لكن جملة جنة الشيطان، هي ما تحيرني".

قال "فاريل": "الأمر بسيط! جنة الشيطان".

وافق "دارتوا" وقد بدا منفعلاً: "بالطبع! ولكن ما المغزى؟". عبس ولف شاربه، وأكمل بعد لحظة تفكير: "صديقي العزيز، في هذه الكلمات الأولى التي نطقت بها أثناء نومها، قد نجد دليلاً على ذلك الجلد الخفي الذي يترك علامات على ظهرها".

هز "فاريل" رأسه، وهمس: "الأمر يصبح أكثر جنوناً، يبدو أننا فقدنا عقولنا، أنا، أنت وهي، كلنا! والآن هي تتحدث بالعربية! بدأت أتساءل إذا كان ظهرها يُجلد حقاً أم أننا نعاني من نفس الوهم الذي تعانيه".

اتجه "دارتوا" إلى الباب وتبعه "فاريل"، مد يده إلى حقيبة وثائق ملقاة على الطاولة، فتحها وأخرج صورة، وقال: "كنت أتوقع ذلك، انظر".

فحص "فاريل" الصورة اللامعة، وقال: "هذا يثبت وجهة نظرك، الكاميرا ليست عرضة للهلوسة أو أوهام الاضطهاد، أنطوانيت تعرضت للجلد بقسوة، العلامات القديمة الزرقاء والسوداء ظهرت في الصورة أغمق من العلامات الحمراء الجديدة، وذلك يوضح أننا لسنا مجانين، لا أنا ولا أنت أو هي، أو على الأقل لم نجن بعد، ولكن إذا لم يتوقف هذا قريباً....".

وعض طرف سيجار جديد، مضغه للحظة، ثم أشعل النار فيه، واقترح "دارتوا": "دعنا نتعامل مع الأمر بموضوعية للحظة، ونفكر فيما لدينا، في البداية أخبرتنا أن أحلامها أصبحت حقيقية لدرجة أنها تشعر بالارتباك وتتساءل خلال النهار أيها الحلم وأيها الواقع، تحلم بأنها في حديقة غريبة الجمال، معتمة كضوء القمر لكنها دافئة كدفء شمس الصباح، النباتات غريبة، والزهور لها حلاوة سامة غير طبيعية، والأغرب من ذلك، أن جسدها في الحلم مختلف، بشرتها بنية، وشعرها أسود مزرق، وعيونها كبيرة داكنة، والفتيات الأخريات، رفيقاتها بشرتهن داكنة أيضاً"، لخص "دارتوا" ما قاله: "الآن، هل رأيت كيف أن كلماتها الأولى في هذا النوم المضطرب بدأت تضيف لمسة من العقلانية؟".

فكر "فاريل" للحظة، ثم أجاب: "نعم. تلك الكلمات القليلة التي نطقت بها بالعربية الليلة تشير إلى شخصية مزدوجة، وتعطينا خلفية أكثر، ولكن ألم تخبرنا أنها لم تستطع فهم لغة الفتيات الأخريات، أو لغة الضيوف: رجال نحيلون، سمر، بعيون واسعة متسعة؟ إذا لم تستطع فهمهم، كيف بحق الجحيم تتحدث العربية بطلاقة وبلهجة راقصة في ملهى بور سعيد؟".

قال "دارتوا: "هذه القدرة المفاجئة على التحدث بلغة جديدة يمكن تفسيرها، هناك شيء آخر، ربما أكثر أهمية: السيد الملثم، الذي ينظر إليه ضيوف الجنة بتبجيل كبير، هل يوحي لك هذا بشيء؟".

أجاب "فاريل": "نعم، ولا، في أعماق ذهني هناك شيء، لكنني لا أستطيع التعبير عنه، وأنت، أظنك في نفس المأزق؟".

اعترف "دارتوا": "أنا كذلك، ولكن قبل أن تمر أيام كثيرة سنعثر على الدليل، سنمسك بذلك الذي يستخدم السوط الخفي. فإما أن نمسكه أو نوقف جلده لها، ولكن الآن، خذ قسطاً من النوم يا صديقي".

نظر "فاريل" إلى الباب على يساره، وطمأنه "دارتوا": "ستكون بخير، المحنة انتهت، وما الفائدة التي قدمناها لها في النهاية؟".

وافق "فاريل": "أعتقد أنك محق بيير، لنذهب".

لا دورادا

استيقظ "جلين فاريل" عند الفجر، وكانت محاولته الحذرة للنزول على أطراف أصابعه عبر الدرج الملتوي لمنزل "بيير دارتوا" بلا فائدة، فقد وجد ذلك الأشيب منحنياً فوق مكتبه المليء بالأوراق، يتصبب عرقاً ويتمتم وسط سحابة كثيفة من الدخان والذي ازداد كثافة للحظة عندما أضافت السيجارة بين أصابع "دارتوا" رائحة حرق قماش، أظهر إبريق قهوة نحاسي لامع من صنع سوري، ونصف دزينة من الأكواب الصغيرة، كل منها يحتوي على بقايا سميكة من القهوة المطحونة وأعقاب السجائر، أدرك "فاريل" أن المسن كان يعمل منذ أن غادروا "أنطوانيت ديلاتور" قبل ست ساعات تقريباً.

وكان أمام "دارتوا" كتاب مفتوح، وصفحاته مكتوبة بخط عربي مزخرف، وبجانبه دفتر ملاحظات ومجموعة أوراق مبعثرة، لامه "جلين فاريل" وجلس على كرسي: "بيير، لماذا لم تخبرني أنك ستستمر في العمل؟ هذا الأمر يعنيني أكثر منك، عليّ إنقاذ أنطوانيت من هذه الفوضى الرهيبة".

صاح "دارتوا": "بالله! هذا عمل لعالم، وليس لأحمق مثلك".

قال "فاريل" بابتسامة أزالت للحظة ملامح القلق والغضب التي كانت على وجهه الليلة الماضية: "حسناً، أستطيع قراءة هذا بنفسي، تقريباً بمثل مهارتك مثلما تفعل أنت". ونظر إلى الكتاب للحظة؛ ثم أشار إلى العنوان وقال: "سيرة الحاكم، كيف يبدو هذا لأحمق؟".

وافقه "دارتوا" بغمزة وابتسامة: "جيد جداً، وبعد كل شيء، ربما لا ينبغي لي أن أسميك أحمقاً، حتى لو كنت أتفوق عليك في الذكاء والمهارة في المبارزة". توقف للحظة بعد تلك المزحة التقليدية التي يسخر فيها كل منهما من مواهب الآخر، ثم استمر: "لندع المزاح جانباً، اسمعني، كنت أتابع بعض التكهنات المعقدة، وأردت أن أدرسها بنفسي قبل أن أعرضها عليك".

رد "فاريل": "حسناً"، ووجد فنجان قهوة نظيفاً وسكب بعض القهوة التركية الفاترة التي كان يشربها "دارتوا" خلال بحثه في منتصف الليل، وأكمل: "لكني لا أرى أي صلة بين مذكرات الحاكم والمأزق الرهيب لأنطوانيت".

وقال "دارتوا": استمع، سأوضح لك! كانت الآنسة أنطوانيت تحلم بحديقة مليئة بالورود، والزنابق، والياسمين. إنها تعج بالطيور ذات الألوان الغريبة. في الواقع، وصفت الحديقة نفسها..."، وأشار "دارتوا" إلى الصفحة المكتوبة بالعربية أمامه، وقال: "...التي وصفها الحاكم بإسهاب، فتيات جميلات يعزفن على العود والسيتار، ويستقبلن ضيوف الجنة بالغناء والخمر، وسيد ملثم يحكم الجنة".

قال "فاريل": "ولكن ما علاقة ذلك بالجلد الوحشي؟ ماذا تقول عن ذلك؟".

رد "دارتوا": "ألم أقل إني أعمل بشكل غير مباشر؟ الجلد كما تعرف لم يحدث إلا لاحقاً، بعد أن تكررت الأحلام لبعض الوقت، لذلك يجب أن يكون مجرد مؤشر على التزايد التدريجي....".

قاطعه "فاريل" صائحاً: "لجنوننا نحن الثلاثة بلا شك!".

فرد "دارتوا" بهدوء متجاهلاً غضب صديقه: "الآنسة أنطوانيت لا تحلم، إنها بالفعل تقضي لياليها في تلك الجنة الشيطانية، وتستيقظ وتخبرنا أن لها جسداً آخر، ولكن ذاتها احتفظت بهويتها، واستنتجت أن شخصيتها، أو جوهرها الروحي، أياً كان ما تسميه، تتجول مدفوعة بإكراه شيطاني لتسكن تلك الحديقة، وجسداً غريباً".

تنهد "فاريل" بتعب وهز رأسه: "وهل هذا الخلط بين الذوات والشخصيات كفيل ليجنن المرء؟ ما تقوله لا معنى له".

همس "دارتوا" ومد يده إلى سيجارة أخرى: "آه، هل تقول ذلك؟ منطقي مشوش لأنني لم أوضح لك كيف يمكن أن يحدث هذا، ولكن بافتراض أنه يحدث، أصل إلى النقطة التالية. أنصت جيداً لما سأقوله، علينا أن نجد ذلك المكان الذي وصفه جسد أنطوانيت المادي وهي تتحدث مثل راقصة سورية، ولعنته بوضوح وسمته "جنة الشيطان". هناك حديقة كهذه موجودة في هذا الوقت، أو ربما هناك واحدة تمتد بغموض تسعمائة عام مضت وتتواصل مع أنطوانيت".

همس "فاريل": "يا للعنة، شبح جنة يطارد امرأة في بايون، في عام 1933!".

ونقر "دارتوا" على غلاف كتاب "سيرة الحاكم"، وقال: "المؤلف يتحدث عن حسن الصباح، شيخ الجبال، سيد الحشاشين....".
صاح "فاريل": "فهمت! الجنة التي كان يُلقى فيها المريدون المخدرون بالحشيش بينما هم فاقدون للوعي، حتى إذا استيقظوا اعتقدوا أنهم في الجنة الإسلامية بالماء البارد، ونسائها الجميلات، والخمر المحرمة عليهم في الدنيا؟".
ظهرت ابتسامة "دارتوا" فوق حافة فنجان قهوته الباردة، وقال: "بالضبط، أيها الأحمق الرائع! سأرتشف من الفنجان إعجاباً بذكائك، وأنطوانيت مسحورة بطريقة ما بجنة مثل تلك التي كان يملكها حسن الصباح، سيد القتلة الذين أرعبوا سوريا وفارس منذ قرون".
تقطب وجه "فاريل": "الوضع يزداد سوءاً، أليس في مدينتنا القديمة هذه بايون ما يكفينا من الأشباح والشياطين، وتختفي تحت أسس القلعة المليئة بالدماء، وما حاجتنا إلى استيرادهم من آسيا؟!"، ثم تحولت عيناه إلى السيوف والخناجر المعلقة على الحائط، وأردف: "إذا كانوا بشراً فربما نستطيع فعل شيء حيال ذلك!".
طمأنه "دارتوا": "لا تخف من هذا الجانب، لكل شبح من هذه الجنة رجل يحرك الخيوط، رجل من لحم ودم، يمكننا بسهولة إطلاق النار عليه، أو تقطيعه بواحد من تلك الأسلحة المعلقة على الحائط".
ابتسم "فاريل" بشراسة واستعاد ثقته، وقال: "الأمر معقول، إذن، ما رأيك أن نذهب ونرى ما ستقوله أنطوانيت عن موهبتها الجديدة في التحدث بالعربية، لقد استغرقني عدة سنوات لتعلم ذلك بطلاقة".
سخر "دارتوا": "بربري! الوقت مبكر جداً، لا زلت متأثراً بمواعيدك العسكرية....".
رد "فاريل": "وأنت أيضاً، تعمل طوال اليوم، ولكن انظر إن كان بإمكانك إقناع فيليس بتحضير بعض البيض المقلي، ورطل من اللحم المقدد، وربما بعض الفطائر".
ابتسم "دارتوا": "رائع! بعض عاداتك الأمريكية البربرية ليست سيئة تماماً، لأنك أرسلت لي جهاز صنع الفطائر الكهربائي على الطريقة الأمريكية، ولكنك عاشق سيء، تصرخ في السادسة صباحاً طالباً الطعام، وهذا لا يتناسب مع الرومانسية، أؤمن بأن الرومانسية قد ماتت وقتلها أمثالك".
قال "فاريل": "لا يمكننا محاربة الأشباح على معدة فارغة".
أوقف الإفطار اندفاع "فاريل" قليلاً، ولكن ما أن جلسوا يتناولون القهوة الممزوجة بالبراندي عاد واقترح زيارة "أنطوانيت ديلاتور": "أو على الأقل، دعنا نتمشى ونستنشق الهواء، سأشعر بالقلق إن لم أتحرك".
قال "دارتوا": "الهواء إذن، انظر! إنها بالكاد تجاوزت الثامنة".
اختار "دارتوا" واحدة من عصيه الكثيرة ونزل درجات المنزل القديم، الذي أعاد ترميمه ليكون مسكنه في المدينة. البرج الدائري يعود إلى القرن الثالث عشر، والباقي؛ وإن لم يكن بنفس القدم، كان مبنياً عندما أبحر "كولومبوس"، وكان الشارع الذي يواجه المنزل ضيقاً يتناسق مع تلك الأيام البعيدة، ملتوياً مظلماً ومُعبّداً بالحصى، ولكن "دارتوا" كان راضياً على ذلك، لكونه في قلب المدينة الملونة التي أحبها كثيراً، وارتاح كثيراً عندما رمم المنزل وحدثه من الداخل.
مشوا على طول الرصيف الذي يتبع "نهر نيف" إلى نقطة التقائه بـ"نهر أدور"، ثم انعطفوا إلى اليسار نحو ساحة المسرح، وقبل أن يعبروا الشارع الذي يحيط بالساحة توقف "دارتوا" للحظة عند الرصيف لإفساح الطريق لسيارة إيطالية لامعة وباهظة الثمن، والتي كانت قادمة على الأرجح من طريق "بياريتز"، كان السائق والخادم يرتديان زيّاً موحداً، ورأى الشعار الذي كان على الباب، عرفه "دارتوا"، كان شعار "الماركيز دي إزلوت". وكان "فاريل" الذي يجهل الشعارات مشغولاً بالنظر إلى الراكبة في المقعد الخلفي، كانت فتاة مبهرة الجمال، ترتدي فراء باهظ الثمن، ومجوهراتها لامعة ذهبية مثل شعرها، كانت ملامحها الجميلة متوترة ومتعبة، وعيناها حمراوان ومحاطتان بهالات زرقاء، فصاح وهو يمسك بيد صديقه: "يا إلهي يا بيير! هل رأيت... لحظتها ظننت...".
رمش، ومرر يده على عينيه، ثم حاول أن يلقي نظرة أخرى على الجمال في المقعد الخلفي، تساءل "دارتوا"، بينما كانت السيارة تقترب من جسر "مايو"، كان صوته جاداً، لكن عينيه الزرقاوتين كانتا تلمعان: "وماذا ظننت؟".

كان "فاريل" في حيرة من أمره، وقال: "ظننتها أنطوانيت... أو أنني بدأت أرى أشياء غير حقيقية".
أنبه "دارتوا" بينما كانوا يعبرون الشارع: "صديقي، إن عرفت أنطوانيت أنك أخطأت بينها وبين لا دورادا..."، وهز رأسه محذراً إياه: "هذا خطأ كبير ولا يغتفر، كيف تجرؤ على الخلط بينهما؟".
قال "فاريل" وعيناه الرماديتان لا تزالان ضيقتين بالحيرة: "ولكن ألم تكن هي...؟".
اعترف "دارتوا": "إن ذلك يحدث بالفعل، فغالباً ما يكلم أنطوانيت في بياريتز وسانتاندير معجبي لا دورادا، يحسبونها هي، ولكن بعد التأكد يدركون خطأهم، المظهر يخدع من يعرف المرأتين جيداً للحظة، ولو نظرت مرة أخرى لعرفت الفرق بينهن، على أي حال، فـ"لا دورادا" هي العشيقة الحالية للسيد "المركيز دي إزلوت"، كانت في سيارته وهي في طريقها إلى قصره حيث تقضي الموسم، لا شك أنها عائدة من ليلة لعبت فيها الباكارات أو الروليت في بياريتز".
تساءل "فاريل": "أتعود في هذا الوقت؟!".
ابتسم "دارتوا" وأومأ برأسه: "أنت لا تعرف لا دورادا، لقد حصلت على الاسم في مدريد، حيث اكتشفها صاحب مقهى ورعاها أحد النبلاء الإسبان، لا دورادا، المذهبة، الذهبية".
ساروا عبر الساحة الواسعة، ثم اتجهوا يساراً وصعدوا نحو شارع "بورت نوف"، تحدث "دارتوا" مطولاً عن المسيرة الملونة لـ"لا دورادا" التي تشبه بشكل لافت "أنطوانيت ديلاتور" خلال النظرة الأولى، وعند رأس شارع "بورت نوف" انعطفوا يساراً مروراً بالكاتدرائية القديمة التي تشبه أبراجها الطويلة رؤوس الرماح الفضية في ضوء الصباح، وصعدوا المنحدر نحو الطريق الواسع الذي يتبع "جدار لاشبايه". كانوا في ساعة مبكرة من الصباح، ووجدوا أن "أنطوانيت" أنهت شوكولاتة الصباح والخبز، وترتدي رداءً من الشيفون الأخضر الزمردي، مع زخارف من ريش النعام المجعد الذي كان يحيط بأذنيها ويعانق الشعر الذهبي النحاسي الذي يعزز تشابهها مع "لا دورادا"، كانت مبتسمة لكن عينيها الزرقاوتين الداكنتين كانتا كئيبتين ومليئتين بالقلق، نهضت تستقبل "فاريل" و"دارتوا". وردت بإيماءة يائسة على استفسار "فاريل" المهتم، ثم قالت: "للأسف! كانت الليلة أسوأ من أي وقت مضى، اجلسوا وسأخبركم بكل شيء".
حركت قدميها لتفسح مجالاً لـ"فاريل" عند طرف الأريكة التي كانت عليها، وجلس "دارتوا" على أحد الكراسي، وبدأت انطوانيت: "كان الأمر واضحاً بشكل مرعب! تخيلوا، شعري كان أسود قاتماً، وكذلك عيناي، وبشرتي كانت داكنة مثل عربية! لقد ضربوني بوحشية... كالعادة".
ارتعدت عند تذكر الحلم، وحدق "دارتوا" في القدمين الصغيرتين وصندلها الفيروزي والفضي، وبينما كانت "أنطوانيت" على وشك استئناف حديثها، قاطعها: "في حلمك، ماذا كنت ترتدين؟ أعني على كاحليك".
أغلقت "أنطوانيت" عينيها للحظة لتتخيل حلمها، وردت: "أساور ذهبية ثقيلة مرصعة بحجارة كبيرة غير مصقولة، أعتقد كانت من الزمرد. ولكن لماذا تسأل هذا السؤال؟".
لم يجبها "دارتوا" وسألها سؤالاً آخر: "هل كانت ثقيلة جداً؟".
نظر "فاريل" إليه بفضول، متسائلاً كيف يمكن أن تكون الزينة ذات صلة بالقضية، وقالت "أنطوانيت" وهي تبتسم ابتسامة باهتة: "بشكل فظيع! لكني اعتدتها".
أشار "دارتوا" إلى كاحليها: "انظروا!".
فصاح "فاريل" وعبس بحيرة، ثم نظر إلى يده اليسرى وحرك الخاتم الثقيل على إصبعه، وقال: "بحق الجحيم! إن هناك علامات على كاحليها، مثلما يترك هذا الخاتم الثقيل علامة على إصبعي!".
فقال "دارتوا": "هذا هو الأمر! هذا يشير إلى تبادل الأجساد خلال الليل! وكفتاة سورية راقصة يتم جلدك، وتظهر الكدمات على جسد أنطوانيت ديلاتور، والأساور الثقيلة للفتاة السورية تترك علامات على جسدك النهاري كما تترك آثاراً عليها، وماذا تتذكرين أيضاً يا صغيرتي؟ انطباعاتك تصبح أكثر وضوحاً في كل مرة، أليس كذلك؟ ذكرياتك...".
فقالت "أنطوانيت": "هو كذلك، والليلة الماضية... أوه، أعلم أنني أصبحت مجنونة تماماً! كان يرافق السيد الملثم رجل ويمشي معه في الحديقة".

تساءل "دارتوا": "كيف؟ هذا الأمر هو الأكثر غرابة في الحلم؟".
ردت "أنطوانيت": "كان "المركيز دي إزلوت" هو من يرافق السيد، يا إلهي، هل بدأ أهل مدينة بايون بالذهاب إلى هذه الجنة الشيطانية؟".
استدار "دارتوا" فجأة وحدق في "أنطوانيت" ثم إلى "فاريل"، وقال: "ماذا؟ أتمت إضافة السيد المركيز إلى حلمك؟ يا ترى هل توجد هناك صلة؟!".
قال "فاريل": "لا أعتقد، فبعد كل هذا الجنون الذي مرت به قد يكون هذا مجرد خيال لا أساس له".
صاح "دارتوا": "بالله! ألم تكن لتتخيل أن ترى صلاح الدين؟ هذا سيكون أكثر منطقية، يا للعجب! رؤيتها للسيد المركيز بعيدة جداً عن أي خيال، وأنا الآن مقتنع بأنها لم تكن تحلم".
استغرب "فاريل" من الجنون الذي تفوه به "دارتوا": "ماذا؟ لم يكن حلماً! يا إلهي، يا رجل....".
دفع الكابوس المتكرر "أنطوانيت ديلاتور" إلى حافة الانهيار، لذا فإن ما قاله "دارتوا" لم يفاجئها بقدر ما فاجأ "فاريل"، فتنهدت مرهقة وأمسكت بيد "فاريل"، وقالت: "يا إلهي، أصبح كل شيء مربكاً جداً، أصبحت لا أعرف من أنا، أوه، كم يؤلمني ظهري من ذلك الجلد".
طمأنها "دارتوا" :"تشجعي، يا عزيزتي! العدو مخطئ فيما يفعله". ثم قال لـ"فاريل": "هيا! لنبدأ العمل فوراً، لدي حدس ما".
فرد "فاريل": "كلما أسرعنا، كان الأمر أفضل، بيير".
أرخت "أنطوانيت" قبضتها على يده، وذهب خلف "دارتوا" إلى الشارع.

يد حسن

جلسا في المنزل لوضع خطة لمحاربة جنة الشيطان وحديقة الأشباح، وقال "دارتوا": "ستكون مهمتك يا صديقي مراقبة الساحة، ستتسكع وتشرب مشروباً من حين لآخر، وتدخن حتى نهاية اليوم، قد لا ترى شيئاً، ولكن مع الوقت والصبر ستكون لمراقبتك نتائج، فكل سكان بايون يمرون بالساحة".

تساءل "فاريل": "ولكن ما الذي عليّ أن أبحث عنه؟".

أجاب "دارتوا": "أشخاص تظهر عليهم علامات التسمم بالحشيش، خاصة العرب أو الشرقيين الآخرين، وأنت تعرف الأعراض، لقد رأيت ما يكفي من متعاطي الحشيش في مصر وسوريا، ولا داعي لأن أصف لك طريقتهم أو نظراتهم الغريبة، نحن نبحث عن مدمنين، وهم أيضاً من المسلمين المتعصبين، قد يكون ذلك دليلاً ضعيفاً في أفضل الأحوال، لكن بينما تتابع ذلك، قد يحدث شيء آخر، وأنا سأقوم ببعض التحريات عن السيد المركيز دي إزلوت، يتحدث الناس عن أنه يتعامل مع الفنون الغامضة، وسمعته ليست جيدة".

اعترض "فاريل": "ولكن كيف يدخل مدمنو الحشيش في هذا؟".

قال "دارتوا": "أنصت إلي وسأوضح الأمر لك، سبق وأن ذكرنا الحشاشين، أتباع حسن الصباح، سيد الجبل الرهيب، أليس كذلك؟ هؤلاء الحشاشين كانوا من الطائفة الإسماعيلية المتعصبة من المسلمين، وهم موجودون في جنة الشيطان، ومذكورون هذا الكتاب..."، وأشار "دارتوا" إلى كتاب "سيرة الحاكم" المفتوح على المكتب، وأكمل: "كانوا يعتقدون أن لسيدهم القدرة على إدخالهم إلى الجنة لزيارات قصيرة، وفي نهاية الزيارة يتم تخديرهم وإخراجهم ليستيقظوا مرة أخرى على الأرض، مستعدين لأي عمل شائن قد يُطلب منهم كثمن للعودة إلى الجنة".

قال "فاريل": "فهمت، وماذا بعد؟".

فتابع "دارتوا": "طائفة الإسماعيلية، كانت أكثر من مجرد طائفة دينية، كانت سياسية، وأعضاؤها لم يكتفوا بالنظريات، وإذا كانت أحلام أنطوانيت الغريبة تشير إلى أننا نواجه أفراداً من تلك الطائفة الذين يتعاطون الحشيش، فعلينا أن نتعامل معهم، عاجلاً أم آجلاً سيتم ملاحظة واحد أو أكثر منهم في المدينة. أما بالنسبة لأنطوانيت، فمن المحتمل أنها تمتلك قدرات استبصار دون أن تدرك ذلك. وبالتالي، فإن السيد المركيز يستحق أن أقوم بالبحث عنه والتحقيق في أمره، لذلك، قف مراقباً كما أوصيتك، بينما أقوم ببعض التحريات الخاصة، إلى اللقاء!".

استدار "دارتوا" إلى مكتبه سامحاً لـ"فاريل" أن يذهب إلى الساحة ويبحث عن طاولة تحت المظلة المخططة للمقهى، لم يكن "فاريل" متفائلاً جداً، وعند وصوله إلى مقهى "دو ثياتر" تظاهر بالكسل الذي كان سيبدو في أي مكان آخر غير جنوب فرنسا كتمثيل، ولكن كان الاستمتاع بالكسل الهادئ في "بايون" فن قديم، وبالتالي كان من المناسب أن يجلس ويشاهد الدخان يتصاعد من السيجارة التي كانت تشتعل بين أصابعه. جميع سكان "بايون"، والزوار، يمرون في النهاية بالساحة، بحارة برتغاليون وإسبان وإيطاليون، عرب من الجزائر والمغرب، باسكيون من التلال؛ سياح إنجليز في طريقهم إلى أروقة شارع "بورت نوف"، لأنهم لا يمكنهم شراء الويسكي الاسكتلندي إلا من المتاجر الموجودة فيه، بالإضافة إلى فلاحون، متسكعون، جنود في إجازة؛ فتيات يرتدين ملابس بسيطة وغير متبرجات، تركن وراءهن في غرفهن خلف "نهر نيف" كل الزخارف والحلي الخاصة بمهنتهن. مرت السيارات الفاخرة المستوردة بسرعة، لتعبر جسر "مايو" و"جسر سان إسبري"؛ ومرت عربات الثيران ببطء، والسائسون يرتدون أردية قذرة، يسيرون بخطى ثقيلة ويشتمون حيواناتهم الهادئة، كانت "بايون" كعرض وكان "فاريل" يشاهد هذا العرض.

رغم كسله الظاهري، فإن عينا "فاريل" الرماديتان كانتا مشغولتان بأكثر من خيوط الدخان والكأس الطويل من "أنيس ديل أوسو" الموضوع على الطاولة الرخامية أمامه، كان يحدق من بين رموشه المتدلية إلى المارة، وإلى رواد الشوارع الذين يجلسون مثله ويحتسون المشروب الجنوبي، دون أن يحرك رأسه المنحني قليلاً. شد انتباهه ثلاثة كانوا يجلسون على طاولتين إلى يمينه، يمكنهم من مكانهم رؤية شارع "بورت نوف" وكذلك الشارع المؤدي إلى جسر "مايو". كانوا سمراً وذوي ملامح

حادة. اثنان منهما كانا يحملان ملامح عربية، والثالث رغم بشرته الداكنة ومظهره الأجنبي، لم يكن سامياً، بل آرياً، كردياً من كردستان، واحد من أولئك الجبليين الشرسين الذين كانوا في وطنهم مصدر رعب للأتراك والفرس على حد سواء. ومع ذلك، كان للثلاثة قاسم مشترك في ميزة واحدة على الأقل، اتساع حدقة العينين والنظرة الزجاجية الثابتة.

رفع "فاريل" كأسه واستنشق رائحة شراب "أنيس ديل أوسو"، وشعر بمشكلة تلوح في الأفق، تلميحات "دارتوا" السوداء تتحقق بشكل ملموس، أرخى "فاريل" مسدسه في حمالة الكتف، فالنظرة الغريبة في عيونهم أقنعته بأنه قد وجد أثراً لما شعر "دارتوا" أنه سيؤدي إلى مصدر تعذيب لليالي "أنطوانيت". استمر "فاريل" في تظاهره بالاستمتاع بالكسل، اكتفى بإرخاء كتفيه العريضتين، مرر أصابعه عبر شعره الرملي، يحاول أن يحافظ على هدوءه الظاهري إلا أن جسده الطويل النحيف كان متوتراً، وشعر بقشعريرة تجري صعوداً ونزولاً على عموده الفقري رغم دفء اليوم، استدعى النادل وطلب براندي. توقفت سيارة فاخرة مستوردة عند الرصيف، ونزل خادم يرتدي زيّاً وفتح الباب ووقف في وضع الاستعداد، وخرجت امرأة من المقاعد الفاخرة من السيارة التي تحمل شعار "المركيز دي إزلوت".

عرف "فاريل" المرأة، كانت "لا دورادا"، تساءل بينما كان يشاهدها تمشي، لماذا لم يتم نشر سجادة لحماية قدميها من تلوث الرصيف، النسيم الخفيف حمل معه نفحة من العطر الذي لم تتمكن الشائعات حتى من المبالغة في تقدير تكلفته، مرت "لا دورادا" بجانب طاولة الثلاثة الآسيويين، الرجل الذي يواجه جسر "مايو" أشار بيده وتحركت شفتاه، لم يستطع "فاريل" سماع ما قاله، لم تلتفت "لا دورادا" إلى الهمس، كانت معتادة على الإعجاب المهموس، لم يتجاهل "فاريل" تحذير حدسه، شعر بأن شيء ما يثير الشك، ثم حدث، قفز الكردي الذي كان يواجه "فاريل" كالقط، ولمع سكين في يده، زعقت "لا دورادا" عندما صرخ "فاريل" محذراً، وارتفعت صرختها من الذعر الذي شعرت به عندما رأت يد "فاريل" تتحرك بسرعة خاطفة نحو إبطه، وانطلق صوت ثقيل: "بام، بام، بام!".

سقط الكردي إلى الخلف على الرصيف متألماً وأمسك بطنه، فقفز الآخر الذي كان ظهره موجهاً نحو "فاريل" ووجدت السكين التي كان يحملها هدفها، مباشرة في صدر "لا دورادا". انطلق صوت المسدس بعد فوات الأوان، ورغم أن الرصاصة الثقيلة أصابت غريمه وطرحته أرضاً إلا أن نصله كان قد اخترق جسدها. صرخت "لا دورادا"، ترنحت، وانهارت وهي تقبض على الخنجر الذي كان مقبضه بارزاً من فوق طوق معطفها المصنوع من والمغطى بالدماء. ركض "فاريل" ومسدسه في يده، وأدرك أن إطلاق النار على الناجي من الثلاثة كان أمراً مستحيلاً وأن المطاردة بلا جدوى، تجمع النادلون ورواد المقهى والمارة حول الجمال المحتضر، في خضم الفوضى سمع فاريل صوتاً، ولمح سيارة تندفع بجنون نحو الطريق المؤدي إلى "ماراك".

أصدرت "لا دورادا" أنيناً خافتاً ثم ارتعشت، ونطقت بصعوبة: "حسن....". ثم سعلت وأخذت تلهث، وخرجت من فمها رغوة حمراء على شفتيها. وصل رجلا شرطة، وبعد بضع دقائق فرق الحشد الكثيف من المواطنين الذين كانوا يلوحون بيديهم بجنون طبيب عابر، وقال أحد رجال الشرطة الذي رأى "فاريل" يخفي مسدسه: "سيدي، من فضلك رافقنا، إنها مسألة إجرائية كما تفهم، من الواضح أن ذلك الشخص...". وأشار إلى القاتل الثاني الذي أطاح به "فاريل" بطلقات مسدسه.

هز "فاريل" كتفيه، شعر بالإحراج لأنه غريب عن المدينة وسيؤخذ إلى الشرطة لإجراء التحقيقات، وأزعجه أن لديه مشكلة خطيرة أخرى عليه التعامل معها، فوافق بابتسامة مريرة: "حسناً يا سيدي".

ثم رأى "دارتوا" يخرج من الحشد، وهمس في أذن رجل الشرطة، بضع كلمات لكنها كانت كافية، لأن رجل الشرطة التفت فوراً إلى "فاريل"، وقال: "اعذرني، سيدي، يمكنك الاتصال بنا في وقت فراغك، كانت إجراءات روتينية، كما تفهم".

انحنى "فاريل" ومن بعدها تبع "دارتوا" إلى سيارته متلهفاً للابتعاد عن الساحة، وعندما مرا بجوار الحديقة التي تقع بين الطريق إلى "ماراك" و"جدار لاشبايه"، أخبر "فاريل" رفيقه بتفاصيل الاغتيال، وقال "دارتوا" عند انتهاء الرواية: "يا للسماء! هذه تقنية النظام الخامس للإسماعيليين، كانوا يعملون في مجموعات من ثلاثة، بحيث إذا قُتل الأول والثاني، فإن الثالث سيقتل الضحية على أي حال، لقد اصطادوا صلاح الدين قبل سبعمائة عام، وقتلوا نظام الملك، والسلطان بيبرس

الفهد بالكاد نجا منهم، لقد أرعبوا الشرق الأدنى حتى جاء تيمورلنك غاضباً وهاجم قلعتهم التي تكاد تكون منيعة في ألموت، ودمرها حجراً حجراً، وقتل 12,000 إسماعيلي. لكن النظام استمر، رغم أن قوته قد تحطمت منذ خمسة قرون، بفضل وحشية تيمورلنك"، وتابع "دارتوا": "أنا مقتنع تماماً أنك شهدت عودة ظهور هذا الوباء الذي أكل قلب العالم الإسلامي لعدة قرون، يبدو أنهم يعيدون التوسع مرة أخرى، تماماً كما اغتالوا كونراد دي مونفيرات خلال الحروب الصليبية، فهم الآن يشنون حرباً سرية ضد الكفار مرة أخرى".

تساءل "فاريل": "ولكن لماذا ضربوا لا دورادا في الساحة العامة؟ كان بإمكانهم قتلها خفية، حتى لو لم يتوقعوا أنني سأطلق النار على اثنين منهم، فقد يكون بإمكان المتفرجين الآخرين أو الشرطة قتلهم أو القبض عليهم".

قال "دارتوا": "أنت تفوت نقطة مهمة، وهو أمر يمكنني أن أفهمه، فرغم رحلاتك الكبيرة والواسعة في الشرق إلا أنك لم تتعرف على الإسماعليين، قتلوها في العلن لبث الرعب في الآخرين، من المعروف تاريخياً أن قتلة الإسماعيليين كانوا يُأمرون بقتل شخصية مهمة دون أن يحاولوا الهروب، في إحدى المرات ضرب القاتل ضحيته ثم جلس ليأكل خبزه وتمره بهدوء، منتظراً الحراس الذين سيجرونه إلى الجلاد ليُعدم بوضعه على وتد حاد. كان المدمنون على الحشيش يواجهون مصيراً مروعاً مقابل العودة إلى الجنة التي خدعهم بها سيدهم، اللامبالاة التامة بالموت والتعذيب كانت تثير رعباً أكبر من الاغتيالات نفسها، هذا يكفي عن الفدائيين، أو المخلصين الإسماعيليين من النظام الخامس، الأوامر الأربعة الأولى كانت تشمل السيد الأعظم، والرؤساء الكبار، والمبتدئين البسطاء، ثم طبقة تُعرف باسم الرفاق. الطبقات العليا تضم أشخاصاً أذكياء، يُختارون بعد دراسة كافية في عقائد الإسماعيليين الحرة والمهرطقة، فيصبحون مؤهلين لأعلى المناصب في النظام، وأصبح الإسماعيليون دولة داخل دولة، قاموا بتقويض إيران وسوريا، ولسنوات عديدة فرضوا الجزية على السلاطين والأمراء، وكان الانتقام السريع عقوبة على عدم الدفع"، اختتم "دارتوا" حديثه بابتسامة خبيثة: "مثل أولئك البلطجية الذين لديكم في الولايات المتحدة، هذا يجب أن يوضح الأمر!".

تساءل "فاريل": "ولكن ما دخل أنطوانيت بكل هذا؟".

أجاب "دارتوا": "إن رفاق ومبتدئو الإسماعيليين كانوا خبراء في الكيمياء، والسحر، والشعوذة، والعلوم الغامضة. لقد استخدموا الإسلام كقناع لجميع أنواع البدع المحرمة، وكطعم لجذب الحمقى المتدينين والمتعصبين الذين قاموا بالقتل الفعلي، و.... كيف نقولها، على الطريقة الأمريكية؟ وتحملوا العقاب، مايمون الفارسي أسس النظام، مفكر حر مهرطق وساحر، هرب من غضب الخليفة المنصور مع ابنه عبد الله، الذي نقل إليه كل معرفته الواسعة في الطب والشعوذة والعلوم الغامضة، وعبد الله بنى على هذا الأساس بوعده بعودة الإمام السابع المختفي الذي لم يمت أبداً؛ بل كان ينتظر اليوم الذي يعود فيه ليحكم كل الإسلام، وما زالوا ينتظرون عودة إسماعيل الإمام السابع، وفي هذه الأثناء انظر إلى الفساد الذي يسلون أنفسهم به، يسحرون أنطوانيت، ويقتلون لا دورادا، الله وحده يعلم ما الذي سيأتي بعد ذلك".

وتوقفوا عند منزل "دارتوا" بينما كان ينهي تحديث ذاكرة "فاريل" حول أصل التهديد الذي ترسخ في "بايون"، وتساءل "فاريل" بينما كان "راؤول" يفتح الباب لهم: "وماذا عن مراقبتي للساحة؟".

فرد "دارتوا": "لقد راقبت بما فيه الكفاية، في الواقع، لقد كشفت نفسك بشكل فاضح لدرجة أنني من الآن فصاعداً سأضطر لمراقبتك عن كثب أكثر من مادموزيل أنطوانيت، وإلا ستجد نفسك مليئاً بالخناجر".

اعترض "فاريل": "هذا هراء يا بيير! لقد كنت بعيداً عن المنزل من قبل، وأنا معتاد على أن تتم ملاحقتي".

حذره المسن: "ومع ذلك، كن على حذر".

شيركوه يصنع السحر

في ذلك المساء، وبعد العشاء، دخل "راؤول" خادم "دارتوا" إلى المكتب حاملاً مظروفاً كبيراً تم تسليمه للتو عن طريق رسول، ألقى "دارتوا" نظرة على الختم الشمعي الكبير الذي يثبت غطاء المظروف، وقال لـ"فاريل": "شعار الماركيز"، ثم غمز وابتسم، وتابع: "مثل الشيطان في الأسطر الأولى من سفر أيوب، تجولت صعوداً وهبوطاً في العالم، وبالتحديد في بياريتز، وحول ممتلكات ماركيزنا الطيب. ولكن هل أحتاج إلى أن أؤكد لك أن وجودي لو لُوحظ، فقد تم تفسيره بشكل كافٍ؟ بكل تأكيد!".

ثم شق المظروف واستخرج منه دعوة منقوشة، همهم وقال: "الماركيز يطلب شرف حضوري في حفل بقصره، جماعة ثوث السحرية تعقد اجتماعاً مفتوحاً".

قاطعه "فاريل": "انتظر لحظة، هناك شيء مريب في هذا، قتلت حبيبته لادورادا ظهراً، والآن يرسل لك دعوة إلى... ماذا كان؟ نوع من مؤتمر المشعوذين، هذا أمر غير منطقي، وقاس ومرفوض إنسانياً، بالإضافة إلى أنه تصرف سيء للغاية بغض النظر عن أخلاقه، فرجل بمكانته يجب أن يكون أكثر تهذيباً!".

فرد "دارتوا": "هذا أمر مسلّم به، ولكن فكر في هذا، ربما تعتمد هذه الجماعة السحرية على مكان الاجتماع المحدد، ولا يمكنها تأجيله بسبب حزن رجل واحد، إن وجود مثل هذه الجماعة كان سراً مكشوفاً لفترة، وربما أنه لن لن يحضر الاجتماع حتى لو كانت الدعوة باسمه، أو قد يكون الماركيز لا يعلم بموت لادورادا".

اعترض "فاريل": "هذا أمر سخيف، في بلدة صغيرة كهذه....".

قاطعه "دارتوا": "انتظر! تذكر حلم أنطوانيت، الماركيز مشى في الحديقة مع السيد الملثم، ربما ما زال في تلك الحديقة، ولن يخرج حتى وقت الحفل".

وافقه "فاريل" فيما قاله: "بحق السماء هذا محتمل، بما أن لادورادا قُتلت على الأرجح على يد الإسماعيليين، فربما يكرم الماركيز بين أيديهم، ميتاً أو أسيراً".

وقال "دارتوا": "أما بشأن الدعوة فقد تكون حيلة للانتقام من مهارتك الرائعة في استخدام المسدس، تجسسهم أعلمهم أنك صديقي وضيفي، ستأتي معي بالتأكيد إلى الحفل، ولكن ضع في حسبانك هذا الأمر، من المستبعد أن يعلموا أن أنطوانيت قد أخبرتك برؤيتها للماركيز في الحديقة، وهذه المعلومة تربط بين الأطراف المتناثرة، وتجعل فخهم الدقيق المنصوب لنا يبدو واضحاً، يا صديقي، صديقي، هل نذهب ونواجههم، أم نبقى في المنزل؟".

ضحك "فاريل": "بيير، أنت مضحك أحياناً! سنذهب، وليذهبوا إلى الجحيم مع فخهم. يمكننا أن نطلق النار للخروج من أي مجموعة من فناني الخناجر التي سيرمونها علينا، أليس كذلك؟".

سخر "دارتوا" ولمع وميض شرس في عينيه الزرقاوين الفولاذيتين: "ها! هل هذا ما تخبرني به؟ تفضل واختر من ترسانتي".

وأشار إلى مجموعة مسدسات مختلفة، قديمة ومسدسات ثقيلة وآلية، وأردف: "بما أننا سنكون أقل عدداً، يمكننا ارتداء تلك القمصان الفارسية المدرعة، إنها أخف من السترة، ومصنوعة بشكل رائع لتحمي من الخناجر وأي مسدسات إلا الثقيلة، سنحضر ذلك الاجتماع!".

ارتديا السترة الفارسية المدرعة ولبسا فوقها ملابس السهرة الرسمية، تمتم "فاريل" عندماما صعدا السيارة وتولى "دارتوا" القيادة: "السحر... السحر... العجائب، أو صناع المعجزات، أليس كذلك؟".

قال "دارتوا": "بالضبط، الألعاب السحرية، الخدع، ولكن هناك طبقة أساسية من الحقائق لا يمكن تجاهلها، رأيت أشياء لا تصدق يقوم بها خبراء التبت، مثل أنهم يقومون بتحريك جثة ويجعلونها ترقص بواسطة سحر شيطاني، في الحقيقة تم قبولي في دوائرهم الداخلية في التبت، وقد ابتعدت عنهم مع الوقت، وهم يتوقعون أننا نعزو دعوتنا الليلة إلى ذلك".

يقع قصر "الماركيز" في التلال خارج "بوابة موسيرول"، على تلة تطل على الريف، شاهدوا عدة سيارات متوقفة بالقرب من المدخل، وقال "فاريل": "يبدو، أن هناك ضيوفاً آخرين، هذا قد يعني شيئاً أو لا يعني شيئاً على الإطلاق".

قدم "دارتوا" دعوته إلى الخادم، والذي أعلن بصوت مهيب بلكنة غريبة: "السيد الفارس بيير دارتوا".
ثم نظر الخادم إلى "فاريل"، تدخل "دارتوا" وأخبر الخادم، الذي أعلن بعد ذلك اسم "فاريل". تقدما عبر دهليز إلى الصالون، قاعة شاسعة ذات سقف عالٍ مضاءة بضوء أزرق نابض، الجدران مغطاة بستائر سوداء مطرزة بالفضة تصور بواقعية تبعث على الحزن صوراً غريبة لأسرار آسيوية، في الطرف البعيد من الصالون منصة محاطة بمواقد عطرية طويلة تنبعث منها أبخرة لاذعة وكثيفة، كان الضيوف يرتدون ملابس السهرة الرسمية، إسبان بشوارب سوداء، وفرنسيون بلحى على شكل مجرفة، ورأى "فاريل" وجوهاً عربية نحيلة وحادة، وعدة وجوه منغولية بوضوح، وتمتم بعد أن وخز "دارتوا": "الضيوف أكثر مما يوحي به عدد السيارات، كل ما حولنا رائع، ولكني أشم رائحة مشكلة".
أضاف "دارتوا" بعد أن جال بنظره حول الصالون: "لا وجود للماركيز".
ثم تقدم لملاقاة الرجل الذي بدا وكأنه مضيف الحفل، وبعد تبادل بضع كلمات قام "دارتوا" بتقديم "فاريل". في خضم المجاملات التقليدية، قيَّم "فاريل" سيد الحفل، كان نحيلاً كحيوان مفترس، وأنيقاً بنفس القدر، وحركاته وإيماءاته تتمتع برشاقة قطة، ويحمل كلامه لهجة غير محددة من اللكنة التي تميز شخصاً يتحدث العديد من اللغات بسهولة متساوية، فختم المضيف كلامه: "بهذا يكون لي الشرف أن أقدم نيابة عن الماركيز اعتذاره وضيافة منزله".
توقف للحظة محدقاً فيهما بعينيه الغائرتين الثاقبتين، ثم أشار بيده نحو صف من الكراسي المرتبة أمام المنصة، وقال: "تفضلوا بالجلوس، سادتي".
راقب "فاريل" الأكتاف العريضة والقامة الطويلة للمضيف وهو يمر بين الضيوف مثل قط يتسلل عبر الغابة، وتمتم: "شيركوه من عشيرة شادي، ينبغي أن يكون مقاتلاً شريفاً، ولكن...".
قاطعه "دارتوا": "أنت محق، لا يوجد شيء شريف في ذلك الرفيق الشيطان، تذكر كلماتي، سنرى المزيد منه إذا عشنا طويلاً بما يكفي".
جلسوا فدوى صوت البرونز، وبدأت أصوات مزمار خافتة ونحيب الكمنجات ذات الوتر الواحد تتصاعد من زاوية خلف الستائر، اتخذ الضيوف مقاعدهم، ومر خادم بين صفوف الكراسي يعرض أكواباً صغيرة من النبيذ ومعجنات مثلثة مغطاة بتصاميم غريبة، همس "دارتوا" وأخفى قطعة حلوى اختارها من الصينية في كفه: "لا تأكلها! إنها مخدرة، لا أحد يعرف ما قد يحدث لعقلك، كل هذا مريب بشكل مخيف".
دوى صوت البرونز مرة أخرى فقفز "شيركوه" بسهولة إلى المنصة، خفتت الموسيقى إلى همسة حزينة، كأنها همس شرير قادم من ظلام خارجي، وظهر ستة رجال نحيلون ذوو بشرة بنية، عراة باستثناء أغطية الوسط التي تتوهج كلهب ذهبي في الضوء الأزرق الشبحي، من مدخل مخفي خلف الستائر المطرزة بالفضة، وتقدموا عبر القاعة نحو المنصة، تبعهم أربعة آخرون بنفس الهيئة، لكنهم أكثر سواداً من أي رجل أسود رآه "فاريل" في حياته، كانوا يحملون نقالة عليها جسد أنثوي لم تخفِ الأكفان الحريرية اللامعة انحناءاته الناعمة، همس "فاريل": "يا إلهي! إنها امرأة!".
صعد الرجال الستة ذوو البشرة البنية إلى المنصة، تبعهم السود حاملين نقالتهم، توقفوا فظهر اثنان آخران من الستائر خلف المنصة، حاملين معهم حوامل برونزية منقوشة وُضعت عليها النقالة، وقف "شيركوه" خلف النقالة بينما جلس الستة من خبراء آسيا العليا متربعين أمامها، بدأ: "أيها السحرة الزملاء، أنا، أصغر خدامكم، أطلب الإذن بتقديم أمر عجيب لم يتحقق إلا في لاسا البعيدة".
صمت وابتسم ومسح شاربه، ثم أشار بيده نحو الجسد المكفن على النقالة، قام خادم بجمع الثنايا الحريرية وكشف عنها، كاد "فاريل" أن يطلق صيحة ذهولاً ورعباً، كانت "لا دورادا"، شعرها النحاسي الذهبي يتوهج كالنار في الضوء الأزرق الأرجواني النابض للغرفة، اليدان المطويتان على صدرها تلمعان بالجواهر، ولم تكن ترتدي أي زينة أو ملابس أخرى. "لا دورادا"، الذهبية، التي لم تمت منذ أكثر من عشر ساعات، جُرّدت من كل شيء إلا من جمالها الأخاذ، ممددة أمام أنظار عبدة الشياطين. للحظة مرعبة، ظن "فاريل" أن "أنطوانيت" هي من كانت على النقالة، ثم تذكر تشابهها مع الممثلة الميتة، وطمأن نفسه بأن "أنطوانيت" في شقتها في شارع "لاشاباييه"، تنتظر ليلة أخرى من الأحلام الغريبة عن جنة القتلة، وجلد

سوط غير مرئي، تابع "شيركوه" بابتسامة تشي بالسخرية الشيطانية: "السيد الماركيز، غير قادر على التواجد معنا، لكني أثق أن ما سأقدمه سيكون جديراً بحضوركم".
همس "فاريل": "يا رب! أنا لا أعرف الماركيز، ولكن يتم عرض جثتة رفيقته في منزله، لدي رغبة في بدء العرض الآن!".
أطبقت أصابع "دارتوا" حول معصم "فاريل" الأيمن، وقال: "أيها الأحمق! هذه ليست من شأنك، اهتم بأمرك".
أومأ "شيركوه" بيده وأشار، على صوت الموسيقى الحزينة حتى أصبحت كالنحيب، وبين أوتار السيتار والعود استطاع "فاريل" تمييز نوتات آلة نفخ تشبه صوت امرأة، وكانت الطبول تهمس وتدندن بإيقاع معقد، بدأت خصور الخبراء تتمايل، وقاموا بحركات تصويرية تشبه تحريك التماثيل المصرية، عيونهم الزجاجية تتحرك بانتظام لتتبع أطراف أصابعهم السريعة، كانوا كجثث أُعيد إحياؤها ولم تكتسب بعد السيطرة الكاملة على أجسادها. ثم رفعوا أصواتهم في ترنيمة تشبه نواح الغيلان المحبوسة في قبر مسلوب، وجوه برونزية ميتة ترتل للموتى، و"شيركوه" يرد بصوت يشبه أمواج البحر البعيدة وذراعيه ممدودتين. صوت آلة التنفخ الشيطانية خلف الستائر أصبحت أكثر شبهاً بصوت امرأة، عذوبة دافئة على خلفية نواح جنائزي وترتيل جليل لـ"شيركوه"، همس "فاريل": "يا إلهي، بيير، هذا فظيع!".
همس "دارتوا": "انتظر حتى يبدأ العرض حقاً، هذا سحر بدائي جداً لكنه قاتل، إنهم يقللون ما ينوون تحقيقه، بالله، اسمع ذلك المزمار اللعين، إنهم يقللون في الموسيقى ويرمزون في ترنيمتهم إلى انتصار الموتى وهم يعودون من العالم الآخر".
الصوت الشيطاني العذب بدأ يصبح أكثر وضوحاً، أرهف "فاريل" سمعه وهو يمسك بذراعي الكرسي ويميل إلى الأمام، يريد تمييز الكلمات التي تُنطق، ثم دخلت آلة أخرى، صوت أجش ومدوٍ يشبه زئير وحوش ما قبل آدم. ارتجفت القاعة من الصوت الوحشي الرهيب. أبخرة البخور تتلوى وتلتف كثعابين شبحية في الزرقة المرعبة تنسج زخارف عربية، وتدور في دوامات، تتجمع حول السداسي الشيطاني وقائده كأشكال من وراء الحدود تصرخ عند محيط دائرة الساحر، بدأ ضباب لامع يتجمع ويجذب إليه أبخرة البخور، نبض وارتجف التوهج المتلألئ ككائن حي، وخفق ببطء وإصرار كنبض قلب سلحفاة بعد إخراجها من الجسد، امتد، وبعدها بدأ يستقر ببطء، وأخذ التوهج غير المحدد شكلاً، الشكل الرشيق لـ"لا دورادا".
كان المزمار الذي يحاكي صوت امرأة انسجم مع ترنيمة الخبراء وزئير البوق الوحشي، نادها السيد، كانت هناك، وبدأ الوجود الشبحي يندمج ببطء مع الجسد اللؤلؤي لـ"لا دورادا"، ارتجفت المرأة الميتة للحظة ثم مدت ذراعيها الرشيقتين، وجلست منتصبة على النقالة، كان صراخها مزيجاً من النشوة والحيرة؛ ثم قبلت اليد التي قدمها "شيركوه لها"، وبكل جمالها العاري قفزت برشاقة إلى المنصة، توقفت الموسيقى والترنيمات وزئير البوق الوحشي، جلس السحرة المجتمعون ثابتين يحدقون وكأن حياتهم وجوهرهم الروحي قد انتُزع منهم وأُعطي للموتى الذين سلموا عليهم بإيماءة وانحناءة، ابتسم "شيركوه" بانتصار: "لقد رأيتم أيها الإخوة، ناديتها فأتت، وأنا مجرد شيركوه، أقل العبيد. انظروا، إنها حية بالدفء والجمال الذي كان في منتصف هذا النهار برودة وأختاً للتراب".
أومأ الرأس الأحمر الذهبي موافقاً، وابتسامتها كانت سحراً بطيئاً منحنياً، همس "فاريل": "يا إلهي، هذا فظيع! أم أنها خدعة؟".
همس "دارتوا": "إنها حقيقية للغاية".
ثم تحدثت: "لقد عدت من الظلال ومن سواد الموت، وجئت لأحييكم وأقول لكم إن هناك جنة يجب أن أعود إليها قريباً، وأولئك الذين يقابلونني هناك لن يفكروا أبداً في الوداع، لقد جئت عبر جسر ضيق، وعبره يجب أن أعود، ولكن ليس إلى أي سواد؛ بل إلى الحديقة لأكون العروس والمكافأة والترحيب لأولئك الذين يؤمنون. يا فدائي... أيها المخلصون...".
"لا دورادا" الجميلة في الموت، أكثر إغراءً من أي وقت في حياتها، ولكن رعباً بارداً أمسك بـ"فاريل" بينما سمع صوت المرأة الميتة الحنون يبهر السحرة بوعود لا يمكن لامرأة بشرية أن تفي بها أو حتى تتخيلها، كان صوتها عذوبة سامة، غنىً حنجري يعلن عن إغواءات ليليث وهي ترتل للنجم الصباحي، ثم أصبحت نبراتها المنتشرة حزناً مؤلماً، وتابعت: "لقد أحبني الموت كثيراً حتى سمح لي بالمغادرة، ولكن محبوب الموت يجب أن يعود...".

زمجر "دارتوا": "يا للهول! هذه قذارة تفوق الوصف! لنذهب! قبل أن نصاب بالجنون....".
وقفز على قدميه ودفع كرسيه للخلف، تبعه "فاريل"، وتوقع في أي لحظة انفجاراً ووميض خناجر وفرقعة مسدسات، ولكن السحرة جلسوا كأموات قدامى ينتظرون موتى جدد، كانت "لا دورادا" تصعد النقالة، حركاتها رشيقة ولكنها بطيئة جداً، كأن الحيوية تُستنزف من جسدها، كانت تموت للمرة الثانية، وقفوا عند العتبة ونظروا إلى الخلف، تقدموا فتنهد "فاريل" و"دارتوا" بعمق وساروا نحو السيارة، كانت الواقعية الشبيهة بالحياة البشعة أذهلتهم، همس "دارتوا" بينما نظر إلى "فاريل" المتوتر، وأكتافه متدلية كأنها تحمل وزن الدرع الفارسي الذي ارتدوه دون داع: "يا إلهي! ماذا كان يريد ذلك الوحش الكافر منا؟ هل كان يأمل أن يقودنا إلى الجنون؟".
رد "فاريل" بتعب: " لا، كان يسخر منا، وبالتأكيد لم قتلته لأنه كان خائفاً منا".
امتد شعاع المصابيح الأمامية الطويل ليضيء القصر، ثم سقط على الطريق المتعرج بينما اتجهت السيارة عائدة إلى المدينة، انحنى "دارتوا" خلف المقود، وارتعد "فاريل" عند تذكر ذلك الجمال المرعب الذي استقبلهم من القبر، وأكّد: "أعرف أنها كانت ميتة، لا يمكن أن تكون حية، رأيت الخنجر مغروس في صدرها ظهراً، لكن ما هذا التمثيل الملعون؟ هناك شيء وراء كل هذا، ستستقبلهم في الجنة ولن يكون هناك وداع، هل كان كل ذلك وهماً، أم....".
انحنى "فاريل" للخلف على الوسائد وأشار بيده بحيرة وعجز، خرجوا من طريق النهر واجتازوا بوابة "موسيرول"، ساروا عبر الأحياء المثيرة للاشمئزاز إلى "نهر نيف"، وعبروا أول الجسور السبعة التي تمتد فوق النهر، انتفض "دارتوا" فجأة من انحنائته خلف المقود، وصاح: "يا إلهي!".
استيقظ "فاريل" فزعاً ونظر إلى رفيقه، رأى الرعب على وجهه، قفزت السيارة للأمام بينما ضغط "دارتوا" على دواسة الوقود، وصاح: "اللعنة! لقد جلسنا هناك كدمى، هذا ما كان يريده!".
قال "فاريل" متوتراً ومنفعلاً بإثارة "دارتوا" المعدية، وسيطر عليه خوف مفاجئ: "ماذا؟ الفخ لم يكن ولا لك، بل لها، السحر! إذا كان هناك أحمق فهو بيير دارتوا!".
مروا بالساحة، صياح فرامل، أبطأوا بما يكفي لينعطفوا عند شارع "بورت نوف"، ثم صعدوا شارع "ديسبانيا" وداروا حول المنعطف الحاد، ومن هناك نزلوا إلى الشارع المحاذي لسور المدينة، دوت الفرامل وثار دخانها، وبغضب عالٍ ولعنات متتالية قفز "دارتوا" إلى الرصيف وصعد الدرج بسرعة، وبدأ يطرق باب "أنطوانيت ديلاتور" بعقب مسدسه، صرخت الخادمة الحائرة من الخوف: "ماذا هناك؟".
صرخ "دارتوا": "اللعنة! افتحي بسرعة! إنه أنا!".
احتجت الخادمة التي لا تزال تعاني من آثار النوم: "لكنها نائمة".
"أسرعي إذن، إذا كانت نائمة أيقظيها... هل هي حقاً...".
انفتح الباب واندفع "دارتوا" ومسدسه في يده، صعد الدرج بثلاث خطوات في كل قفزة، وكان "فاريل" على بعد قفزة واحدة خلفه، بدأوا يطرقون الباب على أنطوانيت، ولا رد، قال "دارتوا": "المفتاح....".
لكن فاريل تراجع للخلف واندفع نحو الباب، قاوم الباب الصدمة، ولكن الاندفاعة الثانية فتحته بعنف، كسر القفل، وكانت أرضية غرفة "أنطوانيت" مغطاة بالجص المتساقط وسريرها كان فارغاً، وهناك فتحة بعرض قدمين تفتح في السقف، كانت الحذاء الفيروزي والفضي يسخر منهم، قال "فاريل": "لقد اختفت!".
وأضاف "دارتوا": "بينما كنا نجلس هناك مستعدين لكمين لم يحدث".
التفت "فاريل" نحو الباب، وأمسك "دارتوا" بذراعه، وقال: "انتظر! إذا كنت تنوي تمزيق القصر إلى قطع، وفر العناء على نفسك، لقد أخذوها إلى مكان آخر، لم تُبذل أي محاولة لاحتجازنا عندما غادرنا لأنها لم تكن ضرورية، ولم يكونوا في القصر، لا أي أحد منهم".
كانت عيون "فاريل" باردة كرؤوس السيوف وهي تنظر إلى السرير الفارغ المزين بالستائر، ثم تركته موجة الغضب القاتلة، وقال: "أنت محق، بيير، إنها خطوتك، ولكن يجب عليك أن تفكر".

رد "دارتوا" بضحكة مريرة ولاذعة، وقال: "التفكير، نعم! تفكيري هو الذي أدى إلى هذا، كان يجب أن نراقبها".

إبراهيم خان

قال "فاريل" في صباح اليوم التالي بينما كان يحتسي القهوة القوية التي ستطرد بقايا النوم الكابوسي الذي أيقظهم منه شروق الشمس : "الآن، من أين نبدأ؟ لديك ما تسميه مكتب المباحث، أليس كذلك؟ على الطريق. ولكن ما ستقوله لا يمكن لأي شرطي عاقل أن يصدقه".

قال "دارتوا": "إنه جنون بالفعل، لكن دعنا نلخص الأمر للحظة، يبدو أن "أنطوانيت" على اتصال مع شخص ما في تلك الجنة، وتعتبر نفسها جزء منه، وتتعرض لضربات وحشية منه تترك علامات على جسد أنطوانيت، من خلال الاستبصار أو الإدراك غير العادي تعرفت على الماركيز في الجنة في حلمها، ووصفها لتلك الجنة يتطابق بشكل وثيق مع الجنة التقليدية التي ابتكرها الإسماعيليون من الطبقة العليا لخداع قتلتهم المتعصبين، والذين يعملون بشكل مشابه جداً للفدائيين من خمسة قرون مضت قتلوا، لا دورادا حبيبة الماركيز، ولا دورادا تشبه أنطوانيت جداً، وإن كان التشابه ليس كافياً لجعلها بديلة، إلا في ظل ظروف أكثر ملاءمة، لادورادا التي أُحييت بشكل مرعب الليلة الماضية تحدثت عن جنة. ولادورادا المحتضرة نطقت باسم حسن قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة في الساحة، ومن خلا سلسلة الرعب الشيطانية كلها نرى ارتباطاً مستمراً بين الإسماعيليين والحشاشين من الذاكرة الملعونة".

وتابع "دارتوا": "أنطوانيت متورطة بشكل ما في شبكة من السحر الأسود والقتل، تعتمد على تشابهها مع لا دورادا، وربما تم خطفها لتحل محل لا دورادا في تلك الحديقة الملعونة، وأخيراً، جماعة السحر هذه جعلت منا أحمقين، وهي على ما يبدو متحالفة مع أو قد تكون جزءاً لا يتجزأ من جماعة الإسماعيليين ودرجاتها العليا، الخبراء، المتخصصين في الغيبيات، السحرة، وعبدة الشياطين بجميع درجاتهم".

وقال "فاريل": "والآن بعد أن لخصت الأمر، ماذا سنفعل؟".

أجاب "دارتوا": "سنبدأ عملنا فوراً".

أشرق وجه "فاريل" بشكل ملحوظ عند تلميح العمل المباشر، وقال بفظاظة: "أُطلق النار".

رد "دارتوا": "ليس بعد أنت من سيطلق النار إذا كان تخطيطي صحيحاً، فأنت ماهر في التنكر، وتتحدث عدة لغات شرقية كأهلها".

وتوقف "دارتوا"، ودرس بتمعن ملامح صديقه النحيلة البرونزية، وعيونه الرمادية الباردة، وتمتم: "عربي، ممكن، لكن ليس جيداً بما يكفي. كردي... نعم، سيكون ذلك أفضل".

اعترض "فاريل": "لا أعتقد، لقد كان هناك بعض الأكراد في القصر الليلة الماضية، وخاصة ذلك الكلب الشيطان شيركوه. وأول القتلة الذين أطلقت عليهم النار في الساحة كان كردياً، الكثير منهم هنا وقد أتعثر بلهجتهم".

تنازل "دارتوا": "إذن أفغانياً، هم من الآريين وإخوتنا في الدم، ستتجول حول الواجهة البحرية، سأحذر مكتب المباحث من اعتقالك، قد يتم ذلك ولكن سيتم إطلاق سراحك لعدم وجود أدلة، لذا كن حذراً ولا تكن وقحاً جداً في بناء خصومات وقتل لتبرر سبب مغادرتك لوطنك. إنها فرصة ضئيلة، ولكن قد تصادف بعض الإسماعيليين الذين سيلاحظون إمكانياتك بشكل إيجابي. في هذه الأثناء، سأبقى على اتصال معك قدر الإمكان. لكن تذكر، حركة واحدة خاطئة ستكشف مهمتك. وأول تحذير ستتلقاه سيكون خنجراً مغروساً في ظهرك، أنت تلعب مع الموت المفاجئ من اللحظة التي تغادر فيها هذا المنزل".

في تلك الظهيرة خرج "فاريل" متمايلاً من المنزل، ولا يمكن لأي خيال خصب أن يربطه بمنزل "بيير دارتوا"، تغير شكل حواجبه عن طريق نتف مدروس وصبغ شعره، وتغير شكل شاربه، وتم فرك أصباغ دقيقة وثابتة على جفونه وحول عينيه لتغيير تعبيرهما، تفاصيل صغيرة لكن تأثيرها كبيراً، ودعم ذلك بالتمايل كسكران، وكانت الإيماءات، ورائحة العرقي والتبغ الأجنبي تنبئ أن "جلين فاريل" قد اختفى، وأن أفغانياً قاسياً منهكاً ومتشاجراً يستيقظ من سكره ويمشي متمتماً في شارع "سانت أوغستان"، سار على الرصيف على طول نهر "أودور"، ووجد سفن صيد وشحن من الجزائر، وزورقاً أبحر من البحر

الأحمر مع طاقمه من الدناقل الأقوياء، كان ربانه حسين، عربياً نحيلاً أشيباً تصرفاته توحي بتهريب اللؤلؤ أو تجارة الرقيق من الساحل الصومالي إلى الجزيرة العربية، مع القرصنة كإضافة جيدة، تحدث حسين عن صحته التي منعته من مواصلة العمل في البحر الأحمر، وكان هناك آسيوي متذلل، يبيع المخدرات. ومشاجرات على طول الواجهة البحرية، لا يمكن لأي أفغاني حقيقي أن يمتنع عنها، فالمشاجرة كانت مشاجرة.

وبعد مدة بسيطة افتخرت الواجهة البحرية بشخصية جديدة، أفغاني متشاجر، سكران، فظ، عالق، يقسم بصوت عالٍ بشرف عشيرة "الدراني" ومستعد لأي خدعة، يسمونه "إبراهيم خان" وأحياناً كان بعض المتسولين المتذمرين يتمتمون عندما يسبهم "إبراهيم خان" ويرمي فرنكاً إليهم. كان المتسول عضواً من مكتب المباحث، يعطي ويتلقى الأخبار، أحياناً تكون أخباراً جيدة، وأحياناً أخرى تحذيراً، ولكنها لم تكن مشجعة أبداً.

الحي الواقع بين "نهر نيف" و"جدار موسيرول" حي سيء السمعة، لدرجة أنه كان محظوراً على الجنود دخوله خلال الحرب، منطقة ذات شوارع ضيقة وقذرة، مقاهي وسخة، بيوت دعارة من أدنى المستويات، ممتلئ بالنبيذ الرخيص، النساء الأرخص، وكل حثالة وقمامة مدينة حدودية وميناء متعدد اللغات. كان أعداء "فاريل" من الطبقة العليا، ويدرك أن الطبقة الأساسية ستكون في الوحل. عالم الجريمة في فرنسا أساسه طبقة القتلة الدنيا، والعقل المدبر يحتاج إلى أدوات قذرة، لأعمال قذرة، وهنا، بين اللصوص، وقطاع الطرق من وراء النهر، قد يُلتقط الدرب. جلس "إبراهيم خان" في أحد أكثر الأماكن قذارة في تلك الأحياء السيئة السمعة، يتمتم بالبشتو والعربية والفرنسية المكسرة، تارة يكون بذيئاً، وفي أحيان أخرى يصبح شاعرياً، ويغازل "مارسيل" النادلة الجميلة، التي جذبت الزبائن:

"اربطي زوجك بحبل، يا بيمبار،

اربطي الحبل بشجرة؛

ألقي الشجرة في النهر، يا بيمبار،

وتعالي إلى حبيبك".

رغم أنه كان ثملاً إلا أنه غنى بعاطفة، واستطاع إنشاد المقطع كله بنفس واحد واختتمه على الطريقة الأفغانية، بصوت حاد مبحوح لم تفهم الفتاة الكلمات، ولكن فهمها شخص يجلس في الزاوية، همس وبصق بازدراء: "آه يا أخي، وهل تصلح مثل هذه الخنزيرة لتفخر بها عشيرة الدراني؟".

وبسرعة أحكمت أصابع "إبراهيم خان" على مقبض أحد الخناجر التي تنتصب في حزامه، وقبل أن يسحبه ابتسم الرجل ذو الوجه النحيل: "ضع ذلك الخنجر جانباً يا أخي، لدي أخبار لك".

هدأ غضب "إبراهيم خان": "حسناً، قل ما لديك من أخبار".

همس "الغريب" الذي لم يسبق لـ"إبراهيم خان" أن رآه على الواجهة البحرية، أو في "حي موسيرول": "بهدوء وبرفق، أنا نور الدين، واهتممت بمهارتك في بعض الأمور، وحسين الربان يثني عليك ويتحدث عنك بإعجاب...".

وقال "إبراهيم خان" الذي كان تحت طبقة الأوساخ "جلين فاريل"، بعد أن ارتجف من شدة الحماس لملاحقة ما شعر أنه الخطوة الأولى لالتقاط الطعم الذي قدمه للعدو بصبر وبدون جدوى حتى الآن: "يجب أن يفعل لعنه الله".

وتابع "نور الدين": "هناك نساء، أجمل من حوريات الجنة".

ضحك "فاريل" بازدراء، ووجه إهانة واضحة لم تترك مجالاً للشك في رأيه بمهنة "نور الدين"، ولكن ذلك كان جزءاً من دوره كأفغاني شرس، واحتج "نور الدين" بضحكة مرحة: "كلا، والله! الأمر ليس كما تظن، اتبعني، إذا كنت تملك الشجاعة".

فحص "فاريل" "نور الدين" للحظة، وكان يبدو عليه الشك. أياً كانت اللعبة التي يلعبها "نور" الدين فبالتأكيد لن تكون لأهداف صغيرة، فأخرج "نور الدين" من بذته القديمة كيساً صغيراً وحركه حتى رن الذهب بداخله، ورمي النقود إليه، فقال "فاريل": "يا نور الدين، سأقاتل بحماس، أنا أفعل ذلك بملابسي المهترئة، وسأفعل ذلك من أجل كيس من الذهب، وإذا كنت لا تزال تريدني أن أقابل أصدقاءك سأقلبلهم كملك، إن شاء الله!".

ابتسم "نور الدين" ولمس ذقنه: "والله إنك مشكّك أيها الأفغاني، اتبعني".
وافق "فاريل": "تقدّم".
تبعه "نور الدين" إلى الشارع ومن هناك إلى زقاق رائحته منتنة وضيق وبإمكانه لو مد ذراعيه أن يلمس المباني على الجانبين، توقف "نور الدين" عند نهاية الزقاق، ومنعهم باب حديدي من التقدم، وقال "نور الدين": "من هنا يجب أن تذهب معصوب العينين".
سخر "فاريل" منه وأخرج مسدساً فوهته واسعة كهاوية: "هل أنت جاد فيها تقوله؟! ربما ترغب في ربط يديّ أيضاً؟ تقدّم الآن! أو سأبعثر أسنانك يميناً ويساراً إن شاء الله". وختم كلامه بكلمة تقية.
رد "نور الدين": "اطلق النار! ذلك أهون عليّ من عدم إطاعة أوامر السيد، سيذبحني بعد أن يعرضني لعذاب شديد".
في ضوء القمر استطاع "فاريل" أن يرى العرق الذي تلألأ على جبين "نور الدين" لكنه لم يتراجع، وقال: "لا، والله! لو كانت هناك عداوة دم بيننا لفعلت. لكن كما هي الحال..."، وهز كتفه ثم أعاد المسدس إلى جرابه، واستدار ليمشي بعيداً في الزقاق الضيق. كان "فاريل" متأكداً الآن أنه على الطريق الصحيح، لن يشكوا به، لأن الجواسيس مشهورون بالموافقة على أي شيء نظير دخول الأبواب المحظورة، و"فاريل" كان يلعب دور الأفغاني المتفاخر والمتقلب بين الشك والتهور، مشى بعيداً بأسلوبه المتغطرس، معرضاً ظهره كهدف سهل لضربة خنجر أو طلقة مسدس، ناداه "نور الدين": "يا إبراهيم! كن منطقياً وعادلاً، لأني أنا من سيتحمل عواقب عدم إطاعة الأوامر وستتم معاقبتي".
رد "فاريل": "أياً كان هذا الشخص، فعليه أن يأتي إليّ بنفسه، وسأجعله يغير قوانينه والله، ورأسك ليس أكثر من كرة للعب".
استسلم "نور الدين" عندما استدار "فاريل": "حسناً، افعل ما تريده".
ثم صفق يديه بقوة، أحس "فاريل" بالخطر، ولكن قبل أن يتمكن من الالتفاف وسحب سلاحه غطاه شيء ناعم ولزج، شبكة من الحبال الحريرية القوية ربطت أطرافه وشبكتها، أقسم وهو يتصارع مع الشيء الناعم القاسي الذي كان كشبكة عنكبوت عملاقة، وحاول سحب خنجره: "الله، بالله الحق، بالإله الواحد الحق! أنت خنزير وابن خنزير!".
ظهر شيء من ظل العمود الذي يدعم الجدار وسقط "فاريل" أرضاً، يحاول تحرير نفسه ومواجهة عدوه، تمكن من تثبيت قدميه وقفز للأعلى وصدم بكل قوة كتفه في بطن عدوه، همهمة ولعنة مبحوحة، "نور الدين" يحذره، قطع "فاريل" بخنجره عشرات العقد في الشبكة، وقبل أن يتمكن من تحرير نفسه سقط جسم من نافذة فوقه مباشرة فأطاح به على الأرض، غرز خنجره عبثاً بين الحجارة المرصوفة، استعاد توازنه، ورفع جسده... صفعة! شيء صلب وثقيل يتحرك بسرعة أطفأ حواسه، وشعر بشفرة خنجره تغوص في لحم دافئ.

جنة الشيطان

ببطء ثابت، تسلل صوت تقاطر الماء إلى وعي "فاريل"، حتى أصبح انطباعاً منفصلاً عن الخفقان المؤلم في رأسه المضروب، تحرك، ووجد أنه لم يكن، تفقد مسدسه فوجد جرابه تحت إبطه الأيسر فارغاً، ولكن أحد خناجره بقي في مكانه، فكر وهو يستجمع ذكريات المواجهة التي حدثت: "لو أردوا قتلي لفعلوا ذلك في الزقاق، يبدو أنني نجحت في خداعهم إلى الآن"، ثم صاح بالعربية: "آه... رأسي! أيها الكلاب وأبناء الكلاب، اخرجوا وقاتلوا! يا نور الدين، يا ابن العاهرة، يا عم الإبل! يا آكل الطعام النجس!". تردد صدى صراخه في الزنزانة، وتوقف لالتقاط أنفاسه، ترنح، وتمسك بالجدار، أضاءت شعلة في الممر الذي يطل عليه باب الزنزانة، صاح وركل القضبان الحديدية، ويهز السلسلة والقفل اللذين يثبتان الباب: "أبو الخنازير!". أثار الصراخ والضجيج امتعاض أحدهم خارج مجال رؤية "فاريل"، ثم ظهر رجل سمين أبيض اللحية بعيون غائرة ووجه منتفخ وسكران من ممر جانبي، زفر وهو يأخذ الشعلة من حاملها ويتقدم نحو القضبان: "هلّا سكت".

ثار "فاريل": "أحضر لي ذلك الكلب نور الدين".

رد الحارس: "اهدأ وسأساعدك".

وافق "فاريل": "حسناً، إذن، تقدّم، يا عم".

أخرج العم مسدساً ووجهه ناحية "فاريل" وهو يفتح القفل، ثم قال: "تقدم أيها الرجل الوحشي، ولا تقم بحركة خاطئة".

علم من الجدران الزلقة اللامعة للممر أنهم كانوا في مكان عميق تحت سطح المدينة؛ ربما في متاهة الأقبية والأنفاق المتصلة التي تحكي عنها التقاليد المحلية بكلام غامض ومبهم. رأسه كان يؤلمه من ضربات الأسلحة المادية التي استخدمها أعداء من لحم ودم، وارتعد "فاريل" من الشر الذي يخيم في البناء القديم، حيث سمع في السابق عن كائنات تخرج لتدنس الموتى بسحر أسود، وتعذب الأحياء بأوهام مرعبة تأتي في هيئة أحلام، هيبة الشر القديم ظغت على رهبة الحشاشين الإسماعيليين، أمر الحارس: "إلى يسارك".

استدار فاريل عند المنعطف، رأى أمامه وهجاً من الضوء وشم رائحة بخور ثقيلة عالقة، وشاهد عند المدخل البعيد عربي، ورجل ملتح لا يستطيع تحديد عرقه يحرسان المدخل، أيديهم على أحزمتهم مستعدة لسحب الخنجر أو المسدس، نظراتهم جامدة من وجوه لا تتحرك، كانوا مخدرين أو في غيبوبة، فاقشعر "فاريل" وهو يحاول إقناع نفسه بأنهم ليسوا أمواتاً، تردد "فاريل" عند العتبة، وأمره الحارس: "تقدّم، السيد، سيدنا حسن، سيقابلك". فقال "فاريل" في نفسه: "السيد حسن! الشخص الذي نطقت لادورادا المحتضرة باسمه في آخر أنفاسها، كانت تعرف من أمر بقتلها".

اختلج شعور بالابتهاج مع ومضة الرعب التي انقضّت على فاريل وهو يخطو إلى قاعة استقبال حسن، قاتل النساء وسيد السحرة. الغرفة طويلة وضيقة، تخنقها حمرةٌ ضبابية من الضوء، يمتد سجّاد فارسي في الوسط نحو الأريكة الموجودة في محراب مقوس في الطرف البعيد، جلس رجل يرتدي قفطاناً حريرياً بين أكداس الوسائد، وجهه مغطى ولكن عينيه المتقدتين في محجريهما بدتا أكثر تهديداً لكونهما الشيء الوحيد الظاهر. توقف فاريل في منتصف المسافة بين المحراب والمدخل، من زاوية عينه رأى صفاً من الرجال يرتدون ملابس أوروبية، جالسين متربعين على طول الجدار، أذرعهم متشابكة على صدورهم، وعيونهم تحدق ببرود مثل نظرة الحراس عند المدخل. كانوا مخدّرين، أو في غيبوبة تنويمية عميقة. سلم "فاريل" فرد "حسن": "لا سلام ولا حماية، يا إبراهيم، حتى نختبرك".

رد "فاريل" باحترام يمنحه أي أفغاني ولو كان متغطرساً لرجل عجوز: "يا طويل العمر، وكيف سأُختبر؟".

فكر الرجل العجوز للحظة، وضاقت عيناه اللامعتان إلى شقين: "أخبرني، هل يمكنك الطاعة كما يمكنك القتل؟".

وقال "فاريل": "وكيف أعرف يا طويل العمر؟ بحياتك، لم أجرب الطاعة أبداً، فأنا من عشيرة الدراني".

قال "حسن": "ستتعلم، سأضرب لك مثالاً". نظر إلى يساره وصفّق، ثم نادى بحدة: "أسد!".

نهض أحد الأشخاص المجمدين من مكانه على الجدار، تحرك وكأنه يستقبل الإرادة والحركة من مصدر خارجي، وقف أمام المحراب، وقال: "سمعاً وطاعة يا سيدي".

همس "حسن": "خنجرك".
لمعت الشفرة المنحنية من غمدها، وقال حسن بصوته الناعم الخافت، والذي شعر فاريل بأن خلف ما قاله أمر لا يرحم: "ذلك الخنجر هو بوابتك إلى الجنة، يا أسد".
أمال "أسد" رأسه، ولمس بأطراف أصابعه جبهته، شفتيه، وصدره، توقف، لمعت النصل وأسد يغرس الخنجر حتى المقبض في صدره، وقف للحظة ولمس المقبض، ثم ترنح وانهار على البلاط، استلقى ووجهه في البركة الداكنة التي انتشرت ببطء عبر الأرضية. شعر "فاريل" أن ما تحت جلده قد أصبح بلا دماء، ارتعب لرؤية حشاش يريق حياته بلا مبالاة ككأس نبيذ لإرضاء ذلك الرجل العجوز الذي يختلس النظر من وراء لثامه، وقال: "هذه هي الطاعة يا إبراهيم".
استجمع "فاريل" شجاعته وطالب بجرأة: "ولماذا على أي رجل أن يقدم مثل هذه الطاعة؟".
فقال "حسن": "لأنني حارس البوابة، هو الآن في الجنة، ومعفى من أي حساب".
تقطب وجه "فاريل": "ليس أكثر مما يكتسبه أي مؤمن حقيقي لقتل كافر".
تحشرج "حسن": "ستدخل الحديقة، يا إبراهيم، وسترى بنفسك، ثم يمكنك القبول أو الرفض".
يفكر "فاريل" بأنه سيذهب إلى الجنة، وما لم تكن استنتاجات "دارتوا" خاطئة سيجد "أنطوانيت" هناك، كبح حماسه، وتأمل للحظة، ليناسب الدور الذي يلعبه، وأجاب وهو يتقدم: "أنا مستعد، يا طويل العمر".
قال "حسن": "بهدوء، هدوء، هل أنت مسلح؟".
رد "فاريل" وهو يسحب الخنجر الوحيد الذي بقي معه: "أي والله!".
وصفق "حسن" بيديه مرة أخرى: "يا سليمان! يوسف!".
نهض اثنان من الصفوف وتقدما، وقالا بعد انحنيا: "سمعاً وطاعة يا سيدي".
قال "حسن": "هذا رجل يدعي أنه شجاع أيها المخلصون! اسحبا سيوفكما!".
انسلت شفراتهما كواحد، وقف القاتلان مثل نمور مستعدة للانقضاض على فريستهما، توهجت عيونهما في الضوء الأحمر كوحوش تتربص في الظلال خلف النار، عبيد لقوة "حسن" المغناطيسية، وللحشيش المنوم، كانوا رجالاً في الشكل فقط، نظر "حسن" إلى "فاريل"، وقال: "يمكنك الاعتذار دون عقاب أو عار، أنت حر، ولا تدين لنا بالطاعة".
رد "فاريل" وهو يهز كتفيه: "هم رجالك، يا سيدي، ويبدو أنك تريد الاستغناء عنهم".
ضحك الرجل العجوز، وابتسمت عيناه للحظة، وأمرهما: "اضربوا!".
توقفوا للحظة قبل الاقتراب، كان فاريل متأكداً أن أحدهم سيسقط قبل طعنته الأولى ولكن الآخر سيقتله، نجاحه يعتمد على البراعة، حرك قدميه كما لو كان يختبر الأرض، نظر خلفه كما لو كان يتأكد من وجود مساحة للتراجع، كل ذلك في ومضة عين، ثم قفزوا، شفراتهم عطشى ولامعة، قفزة فاريل أخذته إلى اليسار بدلاً من الخلف، أسقط خنجره وأمسك بمعصم أقرب عدو، الذي أخطأ هدفه، وانطلق للأمام بجانب رفيقه، كانت قوة اندفاعه سبب هلاكه، كان هناك صوت كسر عظم، وسقط "يوسف" أمام المنصة. التقط "فاريل" خنجره من البلاط وواجه "سليمان"، ورغم حماسه المتعصب كان يستفيد من سوء حظ "يوسف". دار الرجلان حول بعضهما، يتمايلان ويسددان الطعنات، يحاولان اختراق دفاعات بعضهما، تجنب "سليمان" محاولات "فاريل" للاقتراب لتحويل المعركة إلى اختبار قوة، كما أن الاقتحام لتبادل الطعنات لن يكون كافياً، لأنه إذا قتلوا بعضهم فلن يحصل السيد على الاختبار الذي طلبه. قام "فاريل" بمناورة يائسة تجاه حلق عدوه، وارتفعت شفرة "سليمان" لصد الهجوم وتفاديه، ثم مد "فاريل" ذراعه بالكامل في طعنة قوية، مقدمة السكين للأمام كما لو كان يحمل سيفاً رفيعاً. أخذت الحركة غير المتوقعة "سليمان" على حين غرة، فغرز "فاريل" خنجره حتى المقبض في بطن عدوه. خرج "فاريل" ينزف من جرح في كتفه وانهار "سليمان"، أعجب به "حسن": "أحسنت، يا إبراهيم!".
ثم ضرب جرساً بجانب المنصة، وصاح: "يا موسى! عباس! خليل!".
فُتح لوح خشبي على يمين المنصة، ودخل ثلاثة رجال سود طوال القامة، لم يُبدو أي تعابير طاعة، فقط همهمات غير واضحة كالتي يصدرها من قطعت ألسنتهم، أشار "حسن" إلى القتيلين، والثالث الذي كُسرت ذراعه، تقدم اثنان لتنفيذ

الأمر، وتحدث "حسن" إلى الثالث: "إلى البركة السوداء معهم، كل الثلاثة! وخذ طالبنا الجديد، إبراهيم، إلى الحديقة".
انحنى "موسى"، وبعد إشارة السيد بالإذن قاد "فاريل" إلى غرفة مضاءة بشكل خافت مرتبة على طراز المجلس، أو كقاعة استقبال بيت عربي وامتدت أريكة ضيقة على طول الجدار، في الطرف الأبعد من المدخل موقد قهوة وأواني نحاسية مصقولة، ولم يكن أثاث غير تلك الوسائد والسجاد التي غُطيت بها الأريكة، لاحظ "فاريل" أنه لم يكن وحده، حيث كان غيره مستلقين على الأريكة، وعلى ما يبدو كانوا في طريقهم لزيارة الجنة مثله، فكر "فاريل": "سكارى، أو مخدرين، أو جواسيس لمراقبتي".
أشار "موسى" إلى أن فاريل ليجلس، ثم غادر وعاد بعد قليل بصينية عليها كأس وإبريق ووضعها على منضدة صغيرة، انحنى وترك "فاريل" لينعش نفسه. كان اختبار القتال قاسياً ومتعباً، ولكن إبريق النبيذ، المعطر الذي تفوح منه رائحة الحشيش مثّل اختباراً أكثر خبثاً وخطورة، فإذا نطق "فاريل" تحت تأثير المخدر بكلمة أو قام بحركة قد يُكشف زيفه، وسيكون الموت مصيره، إما موتاً سريعاً، أو تحت التعذيب لمعرفة مقدار ما يعرفه العالم الخارجي عن الإسماعيليين. ومع ذلك لم يجرؤ "فاريل" أن يمتنع عن النبيذ المسكر، فقد يكون مراقباً من خلال ثقوب في الجدار. صاح "فاريل" وهو يمسك بالإبريق ويتجرعه دفعة واحدة: "بسم الله".
كان يأمل أنه رغم تأثير المخدر الخبيث، فإن سنوات تجواله في الأماكن المحرمة في آسيا قد غرست فيه ما يكفي من شخصيته المزيفة لتجنبه الوقوع في خطأ قاتل. تساءل "فاريل" عن الانتحار الذي أمر به "حسن". فقيمة "إبراهيم خان" كفدائي بالكاد تعوض المنتحر والاثنين اللذين قُتلا في القتال. لكنه تصالح مع هذه النقطة عندما فكر في احتمال أن القتلى كانوا مخالفين لانضباط الجماعة، كانت سُكرة الحشيش تتملكه. ثم خطرت لـ"فاريل" خدعة، ربما لا يزال بإمكانه إنقاذ الموقف وتجنب السُكرة الكاملة، وصاح وهو يتظاهر بالسكر: "يا موسى! المزيد من النبيذ!".
أسرع العبد بإبريق ممتلئ، كانت فكرة "فاريل" أن يشرب الكثير من الخمر حتى تثور معدته ويتقيأه، ومثل هذا السكر سيكون متسقاً مع شخصيته، أمسك الإبريق بحماس، لكن الفكرة التي ظنها ستنقذه جاءته متأخرة جداً، لأن نبض قلبه أصبح بطيئاً بشكل مرعب، وبدا أن ذراعه تستطيل كثيراً والإبريق يكبر ليصبح بحجم برميل ويزداد وزنه، واتسعت الغرفة لتلائم الطول غير الطبيعي للذراع التي تحاول رفع النبيذ إلى شفتيه، أصبح "فاريل" واعياً بازدواج الهوية، نصفه كان يكافح بعنف للتعبير عن نفسه والتغلب على ارتباك حواسه، والنصف الآخر يستسلم لنعاس خدر، وهمهمة منومة غزت الغرفة، أخيراً سمع حفيف أجنحة وموسيقى ناعمة ومؤرقة تتنهد بعاطفة، توقف كل إحساس بالوقت. لم يكن "فاريل" يعرف ما إذا كان يُحمل عبر قوس إلى قبو مقبب واسع، أو إذا كان قد طاف على سحب من الحلاوة الساحقة.
تتدفق نافورة وتنثر رذاذها عليه، حدق في السقف، لونه أزرق لامع، مرشوش بنجوم مرتبة في مجموعات غير مألوفة، والطبول تهمس في مكان ما في العبير الدافئ المتغير، سمع صوتاً فضيّاً لخلاخيل، تدحرج على جنبه، وبينما كان يحدق في البلاط الوردي رأى أقداماً أنيقة بأظافر محنّاة تخطو بإيقاع مع نوتات الكمنجة النائحة وأنين المزامير. بذل جهداً للجلوس منتصباً فأسندت رأسه ذراع دافئة وناعمة، وقدمت له يدان نحيلتان ذهبيتان وعاء من سائل بارد عطري، شربه ووجد أن حواسه المضطربة استقرت، الفتاة التي ابتسمت له عيونها داكنة كبيرة بأجفان مكحولة. وكدست أخرى وسائد خلفه، الجنة! مقدمة مؤقتاً كمكافأة لأي فظاعة يطلبها السيد "حسن"، ويعد بالأبدية لكل فدائي متعصب يموت تنفيذاً أوامره، كان هناك ضيوف آخرون منتشرون حول حديقة الياسمين والورود، وعرائس الجنّة ينعشونهم بالإباريق وبالمشروبات الباردة والمداعبات دافئة. بذل "فاريل" جهداً لمحاربة وهم الوقت والمسافة المشوهة، والإغراء الحسي للموسيقى والحشيش. نهض وتجاهل رفيقاته العاشقات وبدأ يستكشف الحديقة، طيور غريبة ترفرف بين أشجار البرتقال والرمان وتقلد أصوات البشر، ببغاء يقلد بصوت كلمات الغرام التي تهمس بها فتاة مالاوية في أذن أحد المخلصين، وسمع كردياً أسمر يطلب إحداهن ودفع رفيقته الأوراسية بعيداً: "أين الذهبية؟".
فتبخر آخر أثر للسكر من "فاريل": "الذهبية – أنطوانيت!".
ضحكت الفتاة: "ستخدش عينيك! دعها وشأنها!".

احتج الكردي: "لكن السيد، سيدنا حسن، وعد أنها ستستقبلنا في الجنة".
عرف "فاريل" أن "أنطوانيت" قد اختُطفت لتحل محل "لا دورادا" المقتولة في هذه الحديقة الشيطانية، ليثبت للحشاشين أن السيد "حسن" يمتلك مفاتيح حديقة القيامة، يردد الكردي: "الذهبية"، وابتسمت الفتاة: "إنها تزمجر وتبصق في محرابها، أيها الرجل القوي!".
ترك "فاريل" الفتاة لتسلية الكردي، وتجول بين صفوف الأشجار المزروعة في الأصص الموازية لجدران الحديقة، الجدران مثقوبة بمحاريب عميقة تشكل غرفاً صغيرة، مداخلها المقوسة بارتفاع الكتف، كان يلقي نظرة في كل واحدة، لاحظ الحلي ومستحضرات التجميل والعطور وقطع الملابس النسائية. لكل عروس من عرائس الجنّة غرفتها الخاصة، لكنهن يفضلن الاسترخاء بين النوافير والأروقة. أخيراً وجد "فاريل" محراباً مشغولاً، فيه امرأة مستلقية على وجهها بين كومة من الوسائد، شعرها نحاسي ذهبي، كتفيها عاريان مغطيان بخطوط زرقاء طويلة، ركع فاريل بجانبها، وهمس: "أنطوانيت!".
لمس كتفها فارتعدت وابتعدت بسرعة، أخرجت من الوسائد سيخاً طويلاً حاداً من الفولاذ يُستخدم في سوريا لشوي اللحم، كانت "أنطوانيت"، عيناها جاحظتان من الخوف، صرخت وطعنت "فاريل" بالسيخ، خدش الطرف خده وأمسك بمعصمها، وقال: "أنطوانيت! ألا تعرفيني؟". نظرت إليه مرتبكة ومتشككة، سقط السيخ من أصابعها، وقبل أن تصرخ مندهشة، تابع "فاريل": "ولا كلمة، إذا مر أي شخص، اصرخي، لا تبدي أنك تعرفيني، أفهمت؟".
أومأت، لكنه رأى أنها لم تفهم النقطة التي قد تُحدث الفرق بين الحياة والموت. كانت لا تزال في حيرة من أمرها، لمست خده ونظرت إليه، لا تزال متشككة: "أوه، جلين... هل أنت...؟ أليس هذا...؟ عزيزي، هذه هي الحديقة المرعبة التي حلمت بها. ولكن الآن بجسدي المادي ولا أستيقظ...".
قاطعها: "اخرسي! من المفترض أن أكون واحداً من هؤلاء الشياطين! أنتِ لا تحلمين. اجمعي شتات نفسك".
سمع خطوات ثابتة تقترب، ليست عشوائية كالتي تأتي من السكر بتأثير النبيذ والحشيش، يتساءل عن القادم، كان سيطبق عليه حكم الإعدام إذا نطقت "أنطوانيت" بكلمة خاطئة في هيستيريتها، همس: "اصرخي! اخدشيني! كما فعلتِ مع الآخرين!".
أمسكها بين ذراعيه وهمس بكلمات غزلية سكرى في أذنها، لكنها كانت مشوشة جداً بسبب اللقاء، لم تعرف كيف تلعب دورها، تعلقت بـ"فاريل" وكأنه الشيء الواقعي الوحيد في ذلك الكابوس الذي لا ينتهي من القتلة المخدرين بالحشيش الذين يلاحقونها ويلمسونها، ويتخلون عن مغازلاتهم عندما يقترحون عليهم حوريات جنة أكثر وداً، وبدلاً من أن تخدش وتقاوم "فاريل" تعلقت به، وبكت، خطوات الموت تقترب، ترتدي أحذية ناعمة، توقفت، ارتعد "فاريل" كحيوان محاصر، حاول بمداعباته السكرى المزيفة أن يغطي على أنينها وكلماتها الخائنة، حفيف الأحذية الخفيفة توقف، شعر فاريل بحدّة النظرة التي تحدق في ظهره، تحرر من عناق "أنطوانيت" واستدار، "شيركوه" الساحر يقف عند مدخل الغرفة الصغيرة، كان قد رأى فاريل في القصر وجهاً لوجه، سمع، وكان يعرف، وهمس مركزاً على اسم المرأة الميتة: "آه، لا دورادا قد جذبتك إلى الجنة؟".

ابتسامته بطيئة وساخرة، وعيونه متقدتان تحترقان بكره متعصب، شل "فاريل" الرعب، وخاف على مصير "أنطوانيت"، فلن تعد تمتلك فرصة للهروب، استمتع "شيركوه" بالمواجهة واغتبط... للحظة طويلة جداً، قفز "فاريل" من وضعية القرفصاء بحركة سريعة وسلسة، أُخذ "شيركوه" على حين غرة ولم يتمكن من سحب خنجره، ارتطما بالأرض، وما أن استعاد "شيركوه" صوابه من مفاجأة الهجوم، كان أكثر من منافس لـ"فاريل" الذي كان مجروحاً متعباً من القتال، ومرتجفاً من النبيذ المخدر. غرزت أصابع الكردي الحديدية في حلقه وخنقته، تفادى "شيركوه" بجسده الرشيق محاولات "فاريل" اليائسة لضربه بركبته، خفتت قوة "فاريل" وسحب الكردي خنجراً من حزامه، وقبل أن يهوي به عليه علا صوت تحطم وتناثر للزجاج فسقط "شيركوه" على الأرض بعد أن كسرت "أنطوانيت" إبريق نبيذ على رأسه، شهق "فاريل" والتقط أنفاسه، ثم ابتعد عن عدوه، و"أنطوانيت" ظلت ممسكة بعنق الإبريق المكسور، نظرت إليه بعيون واسعة من الرعب، ثم أشارت إلى "شيركوه" الذي يتمتم يتململ، أمسك "فاريل" بالخنجر الذي أسقطه الكردي، وقال: "أنا أو هو، إذا كنتِ لا تريدين رؤية ما

سيحدث التفتي للجهة الأخرى".
لمعت الشفرة ثلاث مرات، ومسح "فاريل" الدم عن الخنجر وأعاده إلى غمده، ثم تنهد بتعب ويأس: "على أي حال، سيفتقدونه، ولا يوجد مكان لنخبئه فيه". حدقت "أنطوانيت" في البركة الداكنة التي انتشرت على السجادة الحريرية، وأكمل "فاريل": "لا يمكنني شق طريقي للخروج، ولكن لديكِ فرصة، بيير ومكتب المباحث يعملون على القضية، هل يوجد مكان يمكننا إخفاء ذلك الرجل فيه؟".
هزت أنطوانيت رأسها: "لا مكان، بركة النافورة ليست عميقة بما يكفي...".
قاطعها "فاريل": "لا تهتمي بالنافورة، لدي حدس، نحن لسنا مستعدين بعد لشنق أصغر أبناء الرجل العجوز فاريل!".
عند المدخل استدار "فاريل" وطمأن "أنطوانيت" بإيماءة ثم خرج إلى الحديقة، وغنى أغنية فاحشة بالتركية، بجانب النافورة، وجد ما كان يبحق عنه، الكردي مخدر والفتاة الأوراسية تمكنت من إقناعه أنه من الأفضل أن تترك الذهبية للأفغاني المتفاخر، وقال "فاريل" مبتسماً ودفع الكردي: "أحضري لنا المزيد من النبيذ، يا قمر الجمال".
ضحكت الفتاة: "يبدو أنها أتعبتك بالخدوش".
وافقها "فاريل" بابتسامة عريضة، وبينما حملت الفتاة إبريقاً فارغاً، قال بصوت منخفض للكردي: "أخي، أنتم لم تقتربوا من الأصفرانية بالطريقة الصحيحة". فغمز وأشار إلى مكانها، فذهب الكردي إليها وتوقف عند المدخل المقوس لزاوية "أنطوانيت"، وطمأنه "فاريل": "هي هناك، لن تخدشك".
وبعد التشجيع دخل الكردي وتبعه "فاريل"، وقال الكردي لـ"أنطوانيت": "يا سيدتي".
ثم ارتعد لرؤية جثة "شيركوه"، انزلق "فاريل" بجوار الكردي متجهاً نحو أريكة "أنطوانيت"، فزمجر الكردي وهو يدفع الجثة بقدمه باستهانة: "ابتعد عن طريقي، أيها السكير المخبول!".
في تلك اللحظة، عثر فاريل على ما كان يبحث عنه، السيخ الحاد. وبينما كان الكردي منشغلاً بجثة "شيركوه" انقض "فاريل" بالسيخ فاخترق صدر الكردي حتى ظهرت نهايته الحادة من بين كتفيه.
همس فاريل بينما كان يراقب الكردي ينتفض ويختنق برغوة دموية: "أنا أسف يا رجل".
ثم بدأ يفتش الجثة بسرعة ولم يجد أي أسلحة: "ينزعون أسلحتهم عندما يدخلون هنا، ويتركونني أعمل بيد خالية".
دفع خنجر "شيركوه" في يد الكردي المحتضر وأغلق أصابعه حوله، ثم أمسك بيد "شيركوه" وأغلقها حول الطرف غير الحاد للسيخ، وقال لـ"أنطوانيت": "قد ينقذ هذا الموقف، تذكري، لقد قاتلوا وقتلوا بعضهم، هذا قد يعطيني وقتاً كافياً لأعود وأخرجكِ من هذا الجحيم، أو أرسل رسالة إلى بيير، والآن يجب أن أخرج إلى الحديقة وأفكر بسرعة، قد يظهر شيء آخر... لا، لا يمكنني البقاء هنا معكِ... ويجب أن أترك الجثث حيث هي". وقبلها: "تمسكي. لا تزال هناك فرصة لكِ، وربما لنا".
خرج إلى الحديقة وغسل يديه الملطختين بالدماء في النافورة، لم تكن الفتاة الأوراسية قد عادت بعد بالإبريق الممتلئ، وبينما كان "فاريل" يلتفت حوله بحثاً عنها، ومستعداً لصرف انتباهها عن رفيقها المفقود، ظهر "موسى" العبد الأخرس يحمل جرى على كتفه وكوباً في يده. أدرك فاريل أن هذه علامة نهاية الزيارة إلى الجنة. سيعطي العبد الضيوف جرعة منومة، وعندما يستيقظون سيجدون أنفسهم في قاعة الاستقبال، منقولين بشكل غامض من عالم حسن السماوي، وجاهزين لأي مهمة قتل يكلفهم بها. أدرك "فاريل" أن هذه علامة نهاية الزيارة إلى الجنة، سيعطي العبد الضيوف الجرعة المنومة، وعندما يستيقظون يجدون أنفسهم في قاعة الاستقبال، منقولين بشكل غامض من عالم "حسن" السماوي، وجاهزين لأي مهمة قتل يكلفهم بها، عندما قدم "موسى" الكوب، مد "فاريل" إبريقه، قائلاً: "املأ هذا يا أبا السواد. كوبك صغير جداً".
ابتسم العبد، وأفرغ الكوب في الوعاء الأكبر، وذهب ليقدم الشراب للضيوف الآخرين، حين عادت الفتاة الأوراسية، تمكن "فاريل" من صرف انتباهها، وسكب معظم النبيذ المخدر على قميصه وفي النافورة، ثم تظاهر بالإغماء عندما بدأ المقاتلون الآخرون يسقطون تحت تأثير المخدر، وبدأ يفكر وهو يتذكر "أنطوانيت": "لا فرصة لي لاستكشاف المكان أو الهرب، ربما تنجح حيلة القتال بين "شيركوه" والكردي السكير وتمنحني بعض الوقت، ويتم تأهيلي كمقاتل وإرسالي في مهمة قتل

خارجية". حمل العبد "فاريل" ككيس دقيق، وألقاه على الأريكة بجانب رفاقه المخدرين، ومن شدة التعب وعدم جدوى التفكير غرق "فاريل" في النوم.

كردي أعسر

استيقظ "فاريل" بعد أن وُضعت إسفنجة باردة على جبينه وحافة وعاء نحاسي تُضغط على شفتيه، لم يعرف مدة نومه، سنده "موسى" حتى يقف، وقاده في ممر ضيق ترتفع أرضيته تدريجياً، توقف العبد أمام لوح خشبي وطرقه ثلاث مرات، انزلق اللوح جانباً فألصق جسده على الجدار ليتمكن "فاريل" من المرور، والذي دخل إلى قبو دائري بقطر عشرين ياردة، وفي وسطه بركة دائرية محاطة بحاجز ارتفاعه قدم تقريباً، ولطخة داكنة على البلاط بالقرب من البركة أقنعت "فاريل" بأن هذا المكان الذي أُلقيت فيه جثث ضحايا اختباره أمام "حسن".

تساءل "فاريل" عما إذا كان قد تم إحضاره إلى القبو كإجراء راحة قبل أن يجهز عليه السيد، زلة واحدة تكفي، يقابله كحراب مقوس يجلس فيه رجل عجوز رأسه منحن يتأمل، معلق من تاج القوس مجموعة من المناشير البلورية تدور ببطء، مكونة تأثير كرة متوهجة من الضوء، تقدم "فاريل"، أُغلق الباب خلفه بهدوء، دار حول حافة البركة، تساءل من أي هاوية تخرج مياهها السوداء الهادئة؛ أي مخلوقات تتربص في ظلامها لتفترس الجثث الملقاة في حفرتها، ترك البركة، واصل التقدم نحو الحكيم الملتحي الذي ظل يتجاهل اقترابه، توقف "فاريل" على بعد خمس خطوات من الحضور: "تحت أمرك يا شيخ".

وجهه العجوز، رافعاً نظره مشيراً إلى سجادة صغيرة موضوعة عند أسفل الدرجات التي تصعد إلى الزاوية: "تقدّم للأمام، انظر، يا إبراهيم، هل رأيتني من قبل؟".

ضاقت العيون المتوهجة وتعرف "فاريل" على "حسن"، لم يكن يضع اللثام على وجهه، قابل نظرة المسن الثابتة من دون أن يرمش، حاول أن يبقى هادئاً ولا يضطرب من نظرات المسن المثبتة عليه، لكن محاولته كانت بلا جدوى، شعر بالعجز والضعف يتسلل إليه، اشتعلت المناشير الدوار ولمعت بنيران ماسية تتمدد وتنقبض ككائن حي، تتوهج بين عيني "حسن"، غلبه الإرهاث، صوت المسن يرن بوقار وكأنه يأتي من مسافة بعيدة: "أنا حارس البوابة، في يدي الجنّة وبرودتها وعيونها، انظر إلى يدي...". نظر "فاريل" إلى يد "حسن" الممدودة: "في هذه اليد أحمل الجنة...".

اكتنف "حسن" الضباب، وأصبحت ملامحه غير واضحة باستثناء عينيه اللامعتين، اليد الممدودة تتسع بشكل غريب، بدا لـ"فاريل" أن هذا أمر طبيعي، وأنه من المنطقي ظهور أشباح ضبابية وبقع خضراء في الفراغ فوق اليد، الأشجار تثبت جذورها، ملامحها ضبابية، ومن خلال مادتها غير الملموسة، كان يستطيع تمييز أعمدة المحراب، والضباب الدوار الذي يحجب "حسن"، همس الصوت بهدوء آسر: "في هذه اليد أحمل الجنة، أنا الحارس والوصي، أقبل وأرفض".

ثم انبعث من أعماق عقل "فاريل" قوة أنقذته من الاستسلام لسحر الصوت الهامس والعيون المحترقة، أدرك بأنها مجرد وهم، وبينما كان يحاول المقاومة والإنكار شعر بضربة قوية كأنها مادية ملموسة، إرادة جبارة لا ترحم دكت كيانه كالمطرقة، علم أنه لو استمر في الموافقة، سيُستعبد إلى الأبد. أكد لنفسه، وأجبر شفتيه على الحركة ونطق النفي بصمت، ارتعد من خوف ساحق، خوف رهيب من فقدان هويته، تلك الإرادة المدمرة خلف حجاب السحابة تسحقه. كم كانت سهل الموافقة، وإنهاء العذاب، يردد: "لا توجد جنة، إنها وهم".

قطرات عرق كبيرة تلمع على جبينه، وجهه شاحب ومنهك من عذاب إرادته المضطربة، والاستسلام سيسلم "أنطوانيت" إلى أيدي العدو، يصرّ: "لا توجد حديقة، يده فارغة، فارغة، فارغة!".

حشد آخر بقايا قوته في ذلك الإعلان الأخير، تقلصت الأشجار إلى نقاط خضراء صغيرة، واختفى معها الضباب الرمادي. اليد كانت فارغة! تنهد "فاريل" من الإرهاق الشديد والراحة ثم ابتسم منتصراً. لقد صمد أمام الهجوم النفسي الرهيب الذي كان سيجعله عبداً وخاضعاً لذلك الرجل العجوز وتراث آسيا القاتل، ابتسم "حسن" كما لو كان أمام نكتة قديمة، وقال: "لقد صمدت أمام إرادتي كما لم يفعل أي رجل قبلك، كان هناك من قاوم حتى النهاية، لكنه سقط ميتاً".

"حسن،" وريث "ميمون الساحر"، المنجم الزنديق، تقبل هزيمته بكرامة. ثم أصبح ابتسامه مشؤوماً وساخراً: "من غيرك كان سيملك الذكاء لقتل شيركوه رئيس خدمي، ثم يرتب جثة آخر قتلته، يبدو أنهم ماتوا يتشاجرون على الأصفرانية؟ أيها

الثعبان الماكر، لقد أخطأت في وضع الخنجر في اليد اليمنى، ذلك الكردي كان أعسراً".
بينما استقرت هذه الكلمات في عقله، تساءل "فاريل" إذا ما كان قلبه سينبض مرة أخرى. لقد ضاع، وضاعت معه "أنطوانيت"، هلك بحيلته الخاصة. ولكن حتى الآن، لا كلمة عن خداعه، ضحك "فاريل" في وجه "حسن" كما يناسب شرف عشيرة الدراني: ""والله، أنت تضع مكافأة على القتلة! والآن، ما الجائزة التي تمنحها لي، بما أنني كنت غير مسلح عندما قتلت شيركوه؟"
نظر إليه "حسن" بإعجاب للحظة: "بالله، لكنك تنتمي إلينا! ليس كأحمق مخدر بالحشيش ليقتل ويُقتل، ولكن كشريك، وفي النهاية، كمبتدئ، نبحث عن أمثالك ولا نجدهم".
لكن الوميض في عيني "حسن" تحول إلى لهيب قاتل: "ولكن انتصارك على إرادتي هو هلاكك، في ذروة جهدك لإنكار الوهم نطقت نفيك بصوت عالٍ وتحدثت بالإنجليزية!".
شل "فاريل" من الرعب، كارثة فضحت انتصاره النفسي العظيم، حانت نهايته، الهلاك كان على الأبواب، هلاك لا مفر منه، وإلا لما تجرأ ذلك الرجل العجوز على مواجهته وحده، بصيحة غضب قفز "فاريل" لخنق "حسن" ولم يأبه لإمكانية وجود حرس مختبئين، ولكن الأرض انخفضت تحت قدميه بينما كان "حسن" مبتسماً وثابتاً ويلمس مقبضاً بالقرب من عمود القوس، تعلق "فاريل" بحافة الفتحة التي سقط فيها، شيء فك قبضته فسقط في ظلام حالك تحته.

وحوش البركة

بدلاً من سقوط لا نهائي إلى قعر هاوية، هبط "فاريل" في أقل من ثانية على أرضية حجرية زلقة، ولاحظ أن الهواء لم يكن راكداً كما توقع، تمتم وهو يشعل عود ثقاب: "تهوية جيدة، مجرد حبس مؤقت حتى يشكلوا لجنة للخلاص مني باحتفالية".
كانت جدران الزنزانة منحنية، مشى "فاريل" نحو المركز، أشعل عود ثقاب آخر ورأى عموداً ضخماً يرتفع من الأرض حتى السقف، تذكر البركة التي رآها في الطابق العلوي، واستنتج أن العمود مجوف ويؤدي إلى نبع تحت الأرض في قلب التل الذي بُنيت عليه بايون، فكر بينما كان يدور حول العمود: "سليم وغير مصاب، ولا أثر للأعداء حتى الآن".
بين النفايات المنتشرة في الزنزانة كان "فاريل" يأمل في العثور على حجر أو قطعة خشب أو شيء يمكن به مواجهة العدو بغير يديه العاريتين، وقبل أن يشعل عود الثقاب التالي رأى وهجاً على مسافة كبيرة إلى يمينه، لمح قوس منخفض، قد يكون طريقه للخروج، ولكن الضوء ينبئ عن وجود عدو خلفه، وربما حارس مسلح، فزحف "فاريل" في الظلام وابتعد عن مصدر الضوء، تجاوز العمود وتقدم نحو الجدار، ضربت ركبته شيء معدني صلب، أشعل عود ثقاب ورأى سلسلة، أحد طرفيها مربوط بحلقة قدم ضخمة، والطرف الآخر مثبت ببرغي مثبت في الجدار، كان عمود البرغي متآكلاً، دقائق قليلة من الشد واللف فصلت السلسلة عن مرساها، فكانت النتيجة سوطاً بدائياً لو كان في يد قوية سيحطم أي جمجمة يضربها، أصبح "فاريل" مسلحاً مرة أخرى وارتفعت روحه المعنوية.
عاد إلى طريقه، زحف عبر الممر، نحو الضوء، توقف عند مدخل القبو، كان مضاءً بشعلة متوهجة، والمشهد أعطاه لمحة عن مصيره، شكل أسود زيتي لعبد أسود عضلاته كبيرة يتربص بجانب الموقد، يئن المنفاخ في يديه لجهوده في تحويل نار الفحم إلى حرارة بيضاء، الملاقط أو الأدوات طويلة المقبض تبرز من الكتلة المتوهجة، ورأى "فاريل اثنين من الإسماعيليين يرتدون ثياباً بيضاء وملامحهم عدوانية، مسلحاين بسيوف مسننة ومسدساً، كان موضوع اهتمامهم رجلاً يجلس متربصاً بجانب عمود مقيد بسلاسل في معصميه وتدور السلسلة حول ركبتيه، لم يستطع "فاريل" تمييز ملامحه إلا انحناءة أنفه المعقوفة ولحيته السوداء على شكل مجرفة، همس "فاريل" بينما أصبح الوهج الأحمر بياضاً ساطعاً: "يا إلهي! ذلك الشاب الجالس هناك يبدو كمتفرج بريء، إما أن هذا الحفل ليس له، أو أن لديه شجاعة أكثر من أي عشرة رجال رأيتهم في حياتي".
قيم "فاريل" الموقف، حسب المسافة بين مكان اختبائه ومجموعة التعذيب عند الموقد: "المسافة بعيدة جداً! سيكتشفونني قبل أن أصل إلى مسافة الضربة، لو كانت السلسلة قضيباً صلباً حتى أتمكن من الضرب، والصد بدلاً من استخدامها كسوط". نظر الإسماعيلي الأطول إلى الأعلى، وبإيماءة أشار إلى السقف وخاطب العبد، لم يستطع "فاريل" تمييز كلماته، وضع العبد المنفاخ جانباً والتقط حبلاً رفيعاً ونهض، عرف "فاريل" أنهم سيضعون الحبل في حلقة في السقف المنخفض، وسيربطون كاحلي السجين ويعلقونه لوسمه بالأسياخ المتوهجة دون مقاومة، زمجر "فاريل": "ضاعت فرصتي! كانوا غير منتبهين، وكنت أستطيع ضربهم! فات الأوان".
في لحظة إلهام بحث في جيبه عن عملة فضية كبيرة بحجم الدولار الأمريكي. أدارها بين أصابعه ثم أرسلها تدور عبر القبو لتصطدم بالجدار المقابل برنين خفيف، انحنى الإسماعيلي لالتقاط العملة اللامعة فانقض عليه "فاريل" من مخبئه مثل النمر، يدير سلسلته في الهواء ويضرب رأس العدو المنحني، علت صرخة الزنجي المفزوعة مع صوت تحطم العظام تحت ضربة القيد الحديدي الثقيل. بينما كان الإسماعيلي الثاني يخرج مسدسه بسرعة انحنى "فاريل" لتجنب الرصاصة ثم أمسك بمعصم عدوه وهو يطلق الرصاصة الثانية، وبحركة خاطفة ألقى "فاريل" خصمه أرضاً بينما كان المسدس يطير نحو الجدار، استجمع الزنجي قواه وهجم. تدافع الرجلان على الأرض، يحاول فاريل تجنب طعنات السكين بينما يرد بضربات ركبة وحذاء. في اللحظة الحاسمة، أمسك بطرف القيد الحديدي وضرب به فك الإسماعيلي ضربة قاضية. ثم انقض العبد على "فاريل" بكل ثقله، ضاغطاً على حنجرته بيديه القويتين، بدأ "فاريل" يفقد وعيه من الإرهاق وجهد المعارك السابقة. وفجأة علت صرخة ألم وفاحت رائحة شعر ولحم محترق، فقد انفجر الموقد وتناثر الجمر عليهم فأحرق يدي ووجه "فاريل"، خف ضغط اليد

على رقبة "فاريل"، واستغل الفرصة فركل العبد وأطاح به بعيداً، ونهض "فاريل" والتقط المسدس من الأرض الذي كان مستلقياً على الجدار، والتفت إلى السجين المقيد، والذي قال: "لحسن الحظ، تمكنت من الوصول إلى الملقط وإسقاط الموقد".

نظر الرجلان إلى بعضهما للحظة، وقال "فاريل" بالفرنسية: "أنا مهتم أكثر بالخروج من هنا من تبادل المجاملات، فقد كنت في طريقك لقضاء أمسية بحسب رائعة بحسب التحضيرات التي رأيتها تجهز لك هنا".

فرد السجين الفرنسي: "لسوء الحظ، هذه القيود مثبتة بالمسامير، ولا توجد أدوات هنا لـ...".

قاطعه "فاريل": "سأهتم بذلك". استدار وأعاد الموقد إلى وضعه الصحيح، ثم جمع الجمرات المتوهجة بالملقط، وأشعلها مرة أخرى حتى أصبحت بيضاء ساخنة": "إذا سخنت القيود بما يكفي، يمكننا كسرها باليد".

ركز السجين النظر إلى "فاريل": "لكني لا أعرفك كواحد من الإخوة الذين قد يكونون متعاطفين معي، رغم أن هؤلاء الذين يرقدون على الأرض وكنت أظنهم أخوة أثبتوا العكس".

اعترف "فاريل" بينما كان يجهز القيود ليعرضها لحرارة قوية: "أنا لست ما أبدو عليه"، ثم رأى الشعار المنقوش على الزمردة في خاتم السجين الضخم، خاطر "فاريل" بتخمين بدا مبرراً بغياب المضيف الذي أصدر دعوات الحفل في القصر: "هل أنت الماركيز...".

أشرقت الملامح الكئيبة للحظة: "أنا هو! دي إزلوت، ودائماً في خدمتك!".

وبينما كان "فاريل" يضخ المنفاخ، تساءل عن اللقاء المحظوظ، وسأله: "هل وضعك حسن هنا؟".

"لا، شيركوه مساعده الثاني رتب هذا، حسن مشغول جداً ليهتم بالتفاصيل".

رد "فاريل": "كان لديه الكثير من الوقت لي".

همهم "الماركيز": "همم... إذن يجب أن يكون شيركوه مشغولاً بمهمة مهمة".

صحح "فاريل" بابتسامة: "شيركوه الراحل".

صاح "الماركيز": "يا للهول! هل أنت....".

اعترف "فاريل": "لي الشرف".

"الحمد لله! كان شيطاني شرير انضممت منذ سنوات في سوريا إلى الإسماعيليين كعضو، كنت طالباً في العلوم الغامضة كما تعرف، أهدافهم في ذلك الوقت لم تكن ذات أهمية كبيرة أو ضارة، مثل الإطاحة بالإسلام، ومتابعة التكهنات الصوفية، لقرون لم يكن للجماعة أي اهتمامات دنيوية، تقدمت إلى رتبة مبتدئ، ثم عدت إلى فرنسا ونظمت جمعية سحرية لتواصل الأبحاث التي قمت بها في سوريا وفي آسيا العليا. وكان كل شيء على ما يرام حتى جاء الإسماعيليون إلى بايون واحداً تلو الآخر، وانتهى الأمر بتحويل الجمعية السحرية إلى فرع من الإسماعيليين، كان شيركوه رئيسهم، ثم عادوا إلى تكتيكات القرن الثاني عشر لتعزيز الحشاشين الذين أرسلهم، قاموا بتجنيد قطاع طرق من عالم الجريمة في باريس، وتم إقناع ممثلات ونساء من الطبقة الراقية بقبولهن كأعضاء وتم تعيينهن كجواسيس. هناك مؤامرة جارية الآن، إذا نجحت ستقلب الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية وتنتهي بجهاد يحرك العالم الإسلامي كله. تم تنظيم فرع آخر في ليون، مع رئيس مسؤول. وعندما رأيت الجانب السياسي للإسماعيليين الذين حصلوا على موطئ قدم عندهم من خلال جمعيتي السحرية، احتججت عند شيركوه، وها أنا هنا. كانت الأسياخ الساخنة والأدوات الأخرى ستجعل نهايتي ملعونة".

تساءل "فاريل": "وأين موقع لا دورادا من هذا كله؟".

"آه! لا دورادا؟ إنها الجاسوسة الأهم، كانت صديقة لكثير من الضباط والمسؤولين المدنيين رفيعي المستوى".

قاطعه "فاريل" مصححاً: "كانت، فثلاثة قتلة أنهوا حياتها".

صاح "الماركيز" مندهشاً أكثر من كونه حزيناً: "يا للهول!".

قال "فاريل": "تتعامل مع الأمر بهدوء، بالنسبة لعشيق".

ضحك "الماركيز" بمرارة: "عشيق؟ أنا، عشيقها؟ تمويه لتبرير وجودها هنا وعلى طول الريفيرا. أما عن اغتيالها فذلك يسهل

تفسيره، فلا يد أنها أنهت مهمتها، لذا قُتلت لكتم سرها، ولتحذير ضحاياها من أنهم سيتبعون نفس المصير إذا تراجعوا أو ضعفوا في المسار الذي يفرضه حسن. وهذه الخطوة تجعل الأمر أكثر حسماً أن فرنسا على وشك الانفجار".
الغموض يتكشف شيئاً فشيئاً، تساءل "فاريل" عن علاقة "أنطوانيت ديلاتور" بالأحلام التي كانت تطاردها، ولكن القيود التي كانت تربط "الماركيز" بيضاء ساخنة وجاهزة للكسر، فقال "فاريل": "حسناً، شد!".
انفصلت السلاسل المحروقة بسهولة، ونزعوا ملابس الإسماعيليين الذين يرتدون الثياب البيضاء، وتسلحوا بسيوفهم المسننة ومسدساتهم والرصاص المثبت في الأحزمة، والمفاتيح، بردت أطراف السلسلة، ربطها "الماركيز" بأطرافه حتى لا تصدر صوتاً.
قال "فاريل" وهم يتجهون نحو الباب الحديدي: "أتساءل إن كان هؤلاء الأوغاد قد فارقوا الحياة حقاً؟".
صرخ "الماركيز": "يا للهول، أنا مشتت الذهن". وسحب السيف المسنن من جانبه.
وما أن فتح "فاريل" الباب سمع ضربات سيف أكدت أن ثلاثة آخرين قد دخلوا الجنة، صاح "فاريل" وأغلق الباب: "انتظر لحظة! قد نصادف مجموعة في طريقها إلى هنا لقتلي، هل تعرف أي طريق آخر غير الممر الذي استخدمه جلادوك؟".
فكر "الماركيز" للحظة بينما كان يمسح السيف ويضعه في غمده، وقال: "أعرف، لكننا سنواجه فرصة جيدة للضياع والهلاك في متاهة، هذه الشبكة أقدم من الاحتلال الروماني، واستعدنا جزءاً صغيراً منها، إنها ملاذ لماضٍ رهيب ما قبل التاريخ، وكانت هناك أدلة حية..."، ارتعد "الماركيز" عند تذكر ما رآه: "قتلنا معظمهم. ولكن بالنسبة لي أفضّل مواجهة رجال مثلنا! وإذا كان شيركوه ميتاً سيكون حسن مشغولاً بتعيين رئيس جديد. شيركوه كان خبيراً درس في التبت، ساحر...".
ارتعد "فاريل" وهم يتقدمون في الممر، وأخبر "الماركيز" بما رآه في القصر، فقال "الماركيز": "أوغاد! الليلة التي سُجنت فيها كان هناك ما يكفي من القتلة في الحشد لنشر أسطورة معجزته"، وتابع: "أفضل فرصة لدينا، هي الذهاب إلى القبو حيث رأيت حسن بدون لثامه، ومن هناك إلى قاعة تجمع القتلة، ثم نشق طريقنا للخروج إذا استطعنا! الفرص ضئيلة...".
تساءل "فاريل": "ماذا عن المرور بالحديقة؟".
اعترض "الماركيز": "إنها بعيدة عن طريقنا، ولكن لماذا؟".
أجاب "فاريل": "فيها صديقة، مادموزيل ديلاتور".
صاح "الماركيز" متفاجئاً: "ماذا؟ يا إلهي! كيف....؟".
ثم سيطر على انفعاله وسكت، خرجوا من الظلام وانعطفوا إلى ممر فرعي صاعد مضاء بمشاعل مثبتة في حوامل على الجدار، سمعوا خطوات منتظمة لحارس يسير في دوريته، همس "الماركيز" ولمس مقبض خنجره: "ابقَ في الخلف، أعرف كلمات المرور، وقد لا يعرف أني سجين، ولكن كن مستعداً للقتال إذا انكشف الأمر".
قال "الماركيز" الكلمات السرية للحارس، وعندنا حياه الحارس سحب "الماركيز" خنجره وفي لحظة خاطفة سقط الحارس على الأرض بلا حراك، تقدم "فاريل" همس الماركيز بينما كان يتقدم ويمسح شفرته: "الأمور جيدة، حتى الآن".
عند باب خشبي منحوت بزخارف معقدة، توقفا مرة أخرى، صرخ "الماركيز" وهو يحاول فتحه: "اللعنة، إنه مغلق من الجهة الأخرى. حتى لو فتحنا قفلنا هذا، لن يفيدنا ذلك".
انبعثت أصوات الطبول ونقرات العود بوضوح من خلف الباب الخشبي، وقال "الماركيز": "من الأفضل الانتظار حتى يفرغ المكان، وفي هذه الأثناء لنفتح ثقباً ونرى ما يحدث".
بسكاكينهم، بدآ بحفر فتحة صغيرة في الخشب، نظر "فاريل" من خلالها، فرأى المحراب المقوس الذي أُسقط منه إلى الزنزانة تحته، وكان "حسن" لا يزال جالساً في مكانه مرتدياً اللثام، عرفه من عينيه المتقدتين، على طول جدران القبو، جلس عشرون إسماعيلياً بثياب بيضاء رسمية، عمائمهم بيضاء وأحذيتهم وأحزمتهم قرمزية، مسلحون بسيوف مزخرفة تليق باجتماع رسمي، وجلس عازفون على الأرض بجانب حافة البركة الدائرية، التي عكست مياهها السوداء الضوء الشاحب المنتشر في القبو، انضمّت آلات النفخ إلى الموسيقى بأنين شيطاني، بينما دوى صوت جرس نحاسي، ظهر أربعة يحملون نعشاً يتبعهم خدم يحملون حوامل برونزية، ارتعد "فاريل" من التشابه بين هذا المشهد وبعث "لا دورادا" المرعب، لكنه لاحظ هذه المرة

أن الجثة على النعش لرجل، عندما رُفع الكفن، تعرف على "شيركوه" من عائلة شادي، ورئيس الإسماعيليين كان على وشك أن يتلقى التحية الأخيرة من أتباعه، أنّت المزامير حداداً على هذا المدنِّس للموتى. تنفس "فاريل" الصعداء ثم نظر إلى "الماركيز" وبعدها نظر من خلال الفتحة وصرخ في مرعوباً: "يا إلهي!".

دخل أربعة يحملون نعشاً آخر، يتبعهم خدم بحوامل برونزية، الأقدام الصغيرة والانحناءات الأنثوية تحت الكفن لم تترك مجالاً للشك أنها جثة امرأة، شحب وجه فاريل عندما لمعت خصلات الشعر الأحمر الذهبي، نزع أحد الخدم الكفن، "أنطوانيت ديلاتور"، كانت نائمة أو ميتة، همهم "فاريل" بغضب، واستعد لاقتحام الباب بكتفه، لكن قبضة "الماركيز" أوقفته، وهمس له: "انتظر! الأمر ميؤوس منه الآن، ولكن لاحقاً... اثبت سأخبرك... أنا على دراية بهذه الطقوس".

نظر "فاريل" إلى رفيقه، فرأى وجهه شاحب وعينيه متوهجتين بالغضب، ويده على ذراع "فاريل" ترتجف، فوافق: "حسناً".

لكنه تساءل عن ارتباك "الماركيز" الشديد، الذي تجاوز ما قد يتوقعه من رجل نبيل، لقد استمد بعض الطمأنينة من معرفة "الماركيز" بما سيحدث، ولكنه أيضاً كان مرعوباً بشكل لم يتخيله من قبل. همس "فاريل" بعد أن تذكر الطقوس السحرية في القصر، وداهمته موجة غضب وحزن: "يا إلهي! هل هي... سأكسر الباب!".

فأمره "الماركيز": "تمالك نفسك! أنا أعرف ما سيحدث".

هز "فاريل" رأسه بعناد واستدار نحو الثقب، كان المساعدون وحاملو النقالة يغادرون القبو بانتظام، ونهض "حسن" الرئيس الأعلى للإسماعيليين، من وسائده، وقال: "إخوة وخدام الإمام السابع، لقد عبر رئيسكم العالم شيركوه الحدود، هو الذي كان يستطيع إحياء الموتى ولا يمكنه إحياء نفسه، لكننا إن شاء الله، نستطيع إرسال رسول لإعادته إلينا".

بينما كانت يده المرفوعة تهبط دوى صوت جرس برونزي هائل في أرجاء القبو، تحرك الإسماعيليون المجتمعون ضابطين أوضاعهم لطقوس معينة، واتخذت ملامحهم تعبيراً واحداً، نظرة مركزة وجادة، وساد الصمت المطبق، ينتظرون الإشارة للبدء، أومأ الرئيس الكبير "حسن" برأسه، فانطلقت الألحان، كمانات أحادية الوتر، مزامير الحزينة، وطبول هادرة نسجت لحناً يشبه أنين ملاك ساقط يندم على هبوطه. دوى الجرس الكبير بصدى معدني قوي، دخل المبتدئون القبو، يحركون المباخر في طقس دائري حول الجثتين، "شيركوه" الميت، و"أنطوانيت" الجميلة الحية العارية. نزل "حسن" من منصته ورسم بالطباشير دائرة كبيرة على الأرض، بداخلها نجمة خماسية. عند كل رأس منها وضع رمزاً غامضاً، ثم استدعى بيده ثلاثة من المبتدئين ليقفوا عند النقاط المحددة، وانحنى الجميع تجاه الرأس الخامس الفارغ، والوجود الذي سيُستدعى. ردد "حسن" جملة وبدأ المبتدئون على يساره، وكل على حدة، بترديد سطر من الاستدعاء، والذين كانوا خارج الدائرة نطقوا بعبارة خامسة جهورية، همس "الماركيز": "المكان الفارغ، تمثيل للشخص الذي يدعونه ليشغل الزاوية الخامسة".

بدأت الترانيم تتلى بلغات متعاقبة، من العربية إلى الحميرية، ثم إلى لغات قديمة غامضة، حتى وصلت إلى همهمات حيوانية، أصوات ما قبل البشرية. اسم جليل يتكرر في الترانيم، اسم لا يُنطق عادة إلا همساً. تغيرت ملامح المبتدئين أثناء تلاوة هذه المقاطع المرعبة، يتحولون شيئاً فشيئاً إلى شيء زاحف، شيء يسخر من النجوم قبل ولادتها، ويستهزئ بالنور الذي لم يبزغ بعد. وقف "فاريل" مرتعباً، عيناه مثبتتان على الكيان الذي يتشكل عند الزاوية الخامسة، ضوء أزرق كالزئبق يتكثف شيئاً فشيئاً، يتحول إلى هالة بشرية مهيبة، ألسنة نار شبحية تلتف حول جباه المبتدئين داخل النجمة الخماسية، الجو مشحون بطاقة غريبة، وكأن الهواء نفسه سيتمزق، بدأ الحضور يعلنون: "الأصفرانية! الأصفرانية! الأصفرانية! أتيت من مملكة النار لكِ! خرجت من الأعماق! اسمعي! اسمعي! اسمعي! الأصفرانية! الذهبية! اخرجي من جسدك وامشي في الظلام بين أولئك الذين خبزهم تراب! امشي بين الموتى الوحيدين وابحثي عن شيركوه! ناديه باسمه وخذيه بيدك! قوديه من الظلال إلى الصباح!".

ارتجفت "أنطوانيت" وهي فاقدة الوعي، كأنها تحاول مقاومة الأمر القادم من ذلك الكيان. ثم استسلمت، خرج خيط رفيع من الدخان الأبيض من بين شفتيها الناعمتين، كأنه يتصاعد من شمعة على وشك الانطفاء، صاح "الماركيز" في أذن "فاريل": "يا للهول! إنهم يفعلونها!".

فعادوا إلى الخلف بسرعة وركضوا إلى الباب وضربوه بكل قوتهما، ارتطمت أكتافهما بالخشب المنحوت دون جدوى.

سحب "فاريل" سيفه وبدأ يضرب الباب، تطايرت شظايا الخشب، صرخ "فاريل" مذعوراً: "يا إلهي، انظر".
كان الكيان يمتد نحو السقف، ينحني كأفعى عملاقة في هيئة بشرية، يلوح بيديه فوق جسد "أنطوانيت" الأبيض كالثلج، خيط الدخان الخارج من فمها أصبح أكثر كثافة، وكأنه حجاب شفاف يرفرف فوقها، صاح "الماركيز" بينما كانا يقطعان الباب بجنون: "بسرعة! أمسكهم وسأقوم أنا بطرد الكيان!".
كان الباب مقوى بقضبان حديدية، تثلمت سيوفهم من شدة الضربات، ولكنهما لم يتراجعا، في الداخل بدأ المبتدئون يتحولون إلى أشباح شاحبة، وكأن حياتهم تُسحب منهم لتغذي ذلك الكيان المرعب، صاح "الماركيز" بينما كان سيفه يلمع: "مرة أخرى!".
انفصلت قطعة من الخشب الصلب بين شرائح الحديد المقوية، وتمكنوا بعد عدة ضربات من اختراق الباب، ممزقين ومجروحين من الشظايا والنهايات الحادة للقضبان التي قطعوها، صرخ أحد الموسيقيين ونهض، ثم رأى أحد المبتدئين الجالسين بجانب المنصة "فاريل" و"الماركيز" بينما كانوا يندفعون عبر القبو الدائري، أيقظ رفاقه من تأملهم المفتون بالاستدعاء الذي كانوا فيه، وبدلاً من أن يكونوا أطرافاً رئيسية في الطقس استيقظوا من نومهم العميق، حدقوا للحظة ثم سحبوا سيوفهم المسننة وهاجموا المتسللين لحماية الجناح الأيسر من النجمة الخماسية، كان الحضور لا يزال ينحني فوق الفتاة الفاقدة للوعي، يردد الأوامر العظيمة التي سترسلها عبر الحدود.
كتفاً بكتف، واجه "فاريل" و"الماركيز" الهجوم بإطلاق النار، تم إيقاف الهجوم لكن العدو ثبت بقوة لحماية النجمة الخماسية رغم وابل الرصاص، كان "فاريل" وحليفه أقل عدداً بعشرة إلى واحد، استعاد الموسيقيون أسلحتهم، لم يعد هناك وقت كاف لإعادة تحميل المسدسات بعدما استعاد الإسماعيليون صوابهم بعد الصدمة، فقفزوا للأمام وأنصالهم تلمع، اصطدمت السيوف، ودارت طاحونة حمراء من الذبح، قاتل "الماركيز" ببأس انتقامي، يتراجع ويتقدم، يتفادى ويصد، يقطع ويقتل. وبقي "فاريل" بجانبه ليشقا طريقاً دموياً عبر العدو، قاتل بغضب أعمى وغير عقلاني، يحاول أن يشق طريقه عبر الحشد ويخلق طريقاً لـ"للماركيز" الذي يمكنه التعامل مع ذلك الحضور الرهيب الذي كان يردد بصوت مدوٍّ الحياة والجوهر الحي من "أنطوانيت"، شعر العدو بأن "الماركيز" حجر الزاوية فركز هجومه عليه، ورغم مهارته المذهلة في استخدام السيف، فتكالبوا عليه، يضربون من كل جانب، سقط تحت عاصفة السيوف، واستعاد وعيه تحت حماية سيف "فاريل"، لكنه كان يسعل دماً من جرح غائر.
ترك "حسن" والثلاثة الذين كانوا معه النجمة الخماسية. فـ"الحضور" أصبح مزوداً بالقوة التي استمدها مما حضّره واستدعاه المبتدئون من وراء الحدود، أصبح مكتفياً بذاته ولم يعد بحاجة إلى جزء من الطاقة البشرية، وقف "حسن" خلف خط الهجوم، وصاح عندما رأى "الماركيز" يستعيد وعيه ويتقدم مرة أخرى: "اقتلوه عليكم اللعنة".
ولكن محاولتهم تبددت بصيحة غضب من "الماركيز" واندفاعه للأمام وضرباته التي انهالت عليهم حتى سقط فوق كومة من القتلى، "النهاية!" يئس "فاريل"، حُكم عليه بالفشل، وكذلك "أنطوانيت"، ولو استطاع أن يقطع طريقه خارجاً فلن يفيده ذلك في شيء، لأنه كان بحاجة إلى خبيرٍ في السحر لطرد ذلك "الوجود" الرهيب الذي كان يسحب روح "أنطوانيت" من جسدها، فقال: "إنها النهاية".
ولكن الحشاشين بدل من أن يهجموا عليه ليقطعوه إرباً وقفوا وحدقوا بغباء، كانوا ينظرون إلى شيء على يمينه وخلفه، التفت "فاريل" إلى الخلف مدفوعاً بالفضول ليرى ما الذي جمدهم في أماكنهم، فخفض سلاحه من الفزع والرهبة. تذكر ما قاله "الماركيز" عن سكان تلك المتاهة من الممرات. ظهر شيء هائل غير متشكل من البركة الدائرية التي أمر "حسن" بإلقاء "الفدائي" الموتى فيها، كائن مشوه وغريب، رأسه منتفخ فيه عين واحدة دائرية بحجم صحن، تلمع بشكل زجاجي في الضوء الأزرق الشبحي، والأطراف غير متشكلة وثقيلة، يتقدم ببطء وهو يقطر ماء على البلاط، تصدر قدماه صليلاً معدنيا وتخرج أنفاسه بصفير وأزيز. وبينما كان الوحش الأول يتقدم بخطى بطيئة متثاقلة، بدأ كائن ثان مشابه له بالظهور من الماء، ويمسك بقضيب حديدي قصير، ارتفع القضيب في قوس عريض ثم انهال على جمجمة إسماعيلي فتناثر الدم والدماغ كالمطر، أطبق الصمت على المكان، ولم يقطعه سوى أنفاس المخلوقات من الحفرة، صاح الإسماعيليون مرعوبين،

ونسوا "فاريل" وسيفه الذي يقطر دماً وعينيه الحائرة، ونسوا "الماركيز" الذي تحرك وحاول أن يضرب مرة أخرى بسيفه الأحمر، ونسوا الفتاة ذات الشعر الذهبي، ونسوا الحضور الشرير الذي أصبح صامتاً، كان ينبض ويتوهج ككتلة من نار زرقاء كهربائية مرتعشة.

انكسروا وهربوا نحو الباب المكسور مذعورين، أدرك "فاريل" بأن الوحوش كانوا رجالاً يرتدون بدلات غوص. سقط "الماركيز"، ولم يستطع "فاريل" إيقاف الوحش الذي كان يشرب جوهر "أنطوانيت" الحي ويأخذها عبر الحدود دون عودة، يمكنه أن يظل يقتل حتى يسقط من أثر جراحه أو من إرهاقه من كثرة الذبح، قفز فوق الإسماعيليين الساقطين على الأرض، وبصيحة غضب وحزن انضم إلى حليفه لينتقم، خرج غواص ثالث من البركة وانضم للهجوم على الإسماعيليين، يضربهم بدقة لا ترحم، ركض الحشاشين يحاولون التزاحم عبر لوح الباب المكسور، استعاد "فاريل" صوابه من الرعب الذي سببه ظهور الكائنات من البركة السوداء، وصاح "حسن": "ارجعوا وواجهوهم، أيها المؤمنون! إنهم رجال مثلنا!". لكن محاولته لتجميع رجاله باءت بالفشل، تخلوا عن محاولاتهم للتزاحم عبر الباب المهشم، وعادوا للهرب عبر المدخل المقابل، في تلك اللحظة هرع مجموعة من الحشاشين الفدائيين بسكاكين مسلولة للدفاع عن زملائهم، سحب الغواصون مسدساتهم التي تقطر ماء بعد أن تخلصوا من خطاطيفهم وبدؤوا بإطلاق النار بكثافة، وصبوا نيراناً كثيفة ومميتة، خطرت لـ"فاريل" فكرة يائسة لاقتناص "حسن" وإجباره على استدعاء الوحش الذي كان يشرب حياة "أنطوانيت"، فقفز للأمام، يقطع ويشق طريقه عبر القلائل الذين اعترضوا طريقه، وصاح "حسن" حين أدرك أنه خسر المعركة: "إلى اللقاء في الجنة يا مؤمنين".

وقبل أن يتمكن "فاريل" من الإمساك به فتح باب الفخ أمام المنصة واختفى في القبو السفلي، ضاع الأمل الأخير، ستكون ملاحقته عبر تلك المتاهات الجوفية عديمة الجدوى، نظر "فاريل إلى الفتحة التي سمحت لعدوه بالهرب، وخمدت فيه نار القتال وتوقفت قعقعة المسدسات، التفت ورأى أن القاعة الدائرية خلت من كل شيء إلا من جثث وجرحى الإسماعيليين، ولم يتمكن الغواصون بسبب ثقل بدلاتهم من ملاحقة الناجين بوابل نيرانهم القاتلة بفعالية.

رغم تعبه ويأسه إلا أن "فاريل" استجمع شجاعته لمواجهة الكائن الشيطاني الذي يجذب "أنطوانيت" عبر الحدود، التفت فإذا بـ"الماركيز دي إزلوت" ينهض من بين جثث القتلى، جسده ممزق نازف، ترنح، تمايل، ثم تقدم نحو كتلة اللهب المتلألئة، حدق "فاريل" مفتوناً بينما يتقدم كان الرجل المشوه يؤدي إيماءات طقسية بيديه المرتعشتين، ويتمتم بصوت منخفض. بدأ "الوجود" يتقلص ويخفت، وتراجع الضباب الرمادي المضيء الذي كان يخرج من شفتي "أنطوانيت"، حافظ "الماركيز" على توازنه بقوة إرادته فحسب. تعثر، كادأن يسقط، شعر "فاريل" بقلبه يسقط معه، ثم استعاد توازنه وتقدم، لا يزال يحرك يديه ويتمتم، انحنى "الوجود" لمواجهته، وهاجمه بما تبقى من طاقته، محاولاً أن يبقى بعد وفاة الساحر المحتضر. وجه "الماركيز" شاحب متجهم مغطى بالدماء، عيناه ثابتتان تحدقان، أتم حركة طقسية أخرى ثم استجمع قواه، توقف للحظة، وبعد أن كان يتمتم، أطلق بصوت عالٍ عبارة أمر أخيرة. اختفى "الوجود"، وآخر بقايا الضباب الرمادي المضيء تلاشى بين شفتي "أنطوانيت".

قفز "فاريل" إلى الأمام في اللحظة المناسبة ليحمل "الماركيز" وهو ينهار. رفع الغواصون خوذاتهم بعد أن عادوا من المدخل البعيد حيث خاض الإسماعيليون معركتهم الأخيرة، كان "بيير دارتوا" وعضوا الشرطة السرية متسخون ولكن منتصرون، حول "فاريل" و"الماركيز" الذي كان يستعيد قوته تدريجياً. وقال وهو يشير إلى "أنطوانيت": "سادتي إنها في أمان، ستستيقظ قريباً، ولا يمكن لذلك الكائن أن يعود. أبداً! لقد كان خطئي في البداية، لكن هذا العمل الشنيع لم يكن في نيتي، أحببتها لكنها رفضتني بإصرار. ومن أجل الانتقام ولكسر إرادتها أعطيتها دون علمها خليطاً من العقاقير المنومة، بحيث تتبادل هي وتلك الفتاة السورية أجسادهما كل ليلة، ثم تدخل حسن في الأمر". ونظر إلى "دارتوا" للحظة: "أنت، سيدي، تفهم بلا شك"، ثم التفت إلى "فاريل": "لكن هذا العمل الأخير لم يكن من صنعي، كانا شيركوه وحسن، حاولت أن أصلح ما أفسدته...".

نظر "فاريل" إلى الرجل المحتضر باشمئزاز، ثم رأى الندم على تلك الملامح الدامية المتعبة، وتذكر وقفة "الماركيز" الأخيرة

الشجاعة حين واجه وطرد ذلك الكائن الشيطاني من وراء الحدود، فتمتم وهو يمسك بيد "الماركيز": "رجل شجاع".
قال "دارتوا": "لقد انتهى كل شيء، كان مهيباً في موته كما كان ضالاً في حياته، لقد مات واقفاً، وكانت لديه الإرادة ليهزم ويصحح أخطاءه".
ثم نهض "دارتوا" وألقى نظرة حوله: "هل تعرف الطريق للخروج من هنا؟".
أشار "فاريل": "من ذلك الباب، أخبرني بهذا قبل أن نبدأ هجومنا".
اقترح "دارتوا": "سادتي، كونوا مستعدين بمسدساتكم، في حال بقى أي من هؤلاء القتلة متخفياً هنا، سأتولى أمر الفتاة، وأنت يا صديقي ستقود الطريق. ربما كان السيد الماركيز يستحق تكريماً أكبر، لكننا لا نستطيع حمل جثمانه والمخاطرة بأن نُفاجأ بأسلحتنا غير جاهزة".
قادهم "فاريل" عبر الطريق من دون صعوبة، وجد الممر الذي يؤدي إلى القبو حيث كان مستلقياً وهو يستعيد وعيه قبل أن يخضع لاختبارات "حسن". ومن هناك خرجوا أخيراً إلى قلب القلعة. وبعد لحظات التقى "فاريل" و"دارتوا" الذي كان يحمل "أنطوانيت"، والتقوا بـ"راؤول" الذي كان ينتظر خلف مقود سيارة رينو.
قال "فاريل" وهو يفتح الباب الخلفي: "بسرعة! لقد فعلنا ما يجب فعله، لكن المكان لا يزال خطيراً".
أومأ "دارتوا" برأسه بينما كان يضع "أنطوانيت" برفق في المقعد الخلفي: "لنذهب إلى الفندق أولاً، هي بحاجة إلى الراحة ونحن أيضاً".
ركب "فاريل" في المقعد الأمامي بجانب راؤول، بينما جلس "دارتوا" في الخلف يراقب "أنطوانيت"، انطلقت السيارة في شوارع باريس الليلية، تاركة وراءها ظلام القلعة وأسرارها، سأل "راؤول" وهو يلتفت إلى "فاريل": "هل تعتقد أنها ستتذكر أي شيء؟".
هز "فاريل" رأسه: "لا أعرف، الأهم أنها بأمان الآن".
نظر "دارتوا" إلى "أنطوانيت" النائمة ثم إلى "فاريل": "لقد دفع الماركيز ثمن أخطائه في النهاية، ربما كان هذا هو العدل الذي يستحقه".
أغمض "فاريل" عينيه متذكراً المشهد الأخير "للماركيز" وهو يواجه المصير الذي صنعه بيديه: "نعم، ربما... لكن هذا لا يجعل الأمر أقل حزناً".
ساد الصمت داخل السيارة بينما كانت تتجه نحو الأضواء الآمنة للمدينة، تاركة وراءها عالم الظلام والغموض الذي كاد أن يبتلعهم جميعاً.

دارتوا يشعر بالحسد

عادت "أنطوانيت" إلى طبيعتها بعد ساعة، قالت بعد أن جلست على كرسي كبير مريح: "أوه، من الرائع أن أكون خارج تلك الحديقة المرعبة، والآن بعد أن اعترف الطبيب بأني بحالة جيدة، ربما يمكنك إشباع فضولي في بعض النقاط، كيف تمكنت من...". ونظرت إلى "فاريل" الذي كان جالساً على ذراع كرسيها، لم يكن قد اقتنع بعد بأن حديقة الشيطان أصبحت شيئاً من الماضي، وأصر على إبقاء "أنطوانيت" على مسافة قريبة منه، فقال: "لماذا لا تسألين بيير؟".

فضحك "دارتوا": "بعد كل شيء صديقي العزيز، أنت كنت المسؤول. وجدنا جثتين تطفوان على نهر نيف، إحداهما كان سكيناً مغروساً في بطنها، أخبرني مكتب التحقيقات أنهم تعرفوا على السكين، كانت واحدة من مجموعتي، التي أخذتها من عندي عندما كنت متنكراً كـ"إبراهيم الأفغاني" الوغد. فقلت، يبدو أن إبراهيم خان دافع عن نفسه دفاعاً جيداً، وخشيت أن نشاهد جثتك بعد ذلك، بدأنا نراقب بقلق ولكن لم تظهر أي علامات أخرى، ومع انخفاض المد وجدنا جثة أخرى لبحثنا المستمر عنك، كانت الجثة عالقة بالقرب من الجسر الأوسط من الجسور السبعة، تحققنا، ووجدنا مصرفاً غير معروف بقطر كبير. فقلت لرئيس الشرطة: إذا خرجت الجثث من هنا، فيمكنها أن تدخل، وحصلنا على بدلات غوص، ارتفع المد، لكننا حددنا الموقع جيداً، تقدمنا عبر المصرف حتى وصلنا إلى طريق مسدود، حتى قبل أن نخرج من الماء، سمعنا أصوات معركتكم...".

تدخل "فاريل" مبتسماً بقدر ما تسمح الضمادات: "تقصد المذبحة، وصلتم بعد نصف المعركة".

"أغلقنا صمامات الهواء العادم وارتفعنا إلى السطح، ساعدتنا خطاطيفنا التي علقت بحافة البركة على الصعود دون مساعدة، ثم قطعنا خطوط الهواء والحياة، وفتحنا صمامات العادم و...".

أضاف "فاريل" بينما توقف "دارتوا" لإشعال سيجارة: "أخفتهم حتى كادوا يموتون من الخوف ولكن ذلك الشيء اللعين المتوهج... يا إلهي".

قال "دارتوا": "ذلك الشيء يمكنني تفسيره بشكل غامض، إن أمكن، أسميته تمثيلية أخرى، قررت بسرعة أنك والماركيز كنتم بحاجة للمساعدة أولاً، وبعد التفكير وبالنظر إلى بعض ملاحظاتك منذ أن غادرنا، أعتقد أنه كان إما كائناً أولياً استدعاه السحرة الشياطين، أو روحاً شريرة متجولة تم تنشيطها بالجوهر الحي للسحرة، أو ربما بتركيز اهتزازات طقوسهم. السيد الماركيز، رحم الله روحه الضالة، يمكنه بلا شك تفسير ما كان، حيث استخدم آخر شرارة من إرادته لمحاربته وإفشال محاولته لتحويل مادموزيل أنطوانيت إلى... ماذا أخبرتني؟ رسول لاستدعاء شيركوه من الجحيم الذي يجب أن يكون يحترق فيه الآن". تابع "حسن": "كنت سأستمتع جداً، باستجواب حسن الذي ابتكر كل هذه الشيطانية، ولكنه للأسف تمكن من الهرب وبينما كنتما تتقاتلان تمكن رجال الشرطة من تنظيف العش بأكمله، ولسوء الحظ أُسر اثنين من القتلة. والسيدات الجميلات من الحديقة".

تنهد "فاريل" من التعب والرضا، ثم عبس من ألم جروحه، وقال: "لم يكن لدى الماركيز، وقت لشرح كيف مكنه الدواء المنوم من إسقاط ذات أنطوانيت في جسد العروس السورية في الحديقة... يا إلهي، من المستحيل تخيل كيف يمكن لرجل شجاع مثله أن يسمح لاستيائه وخيبة أمله أن تأخذه إلى هذا الحد! جلدها بالوكالة، إذا جاز التعبير".

رد "دارتوا": "الكثير من السحر والشيطانية أزعجت عقله اللامع، كان كئيباً ومتشائماً وسكراناً بمواهبه، وحول أنطوانيت إلى جسد عروس الحديقة، التي كان يمكنه جلدها كما يشاء، كان تعبيراً مشوهاً عن حبه المرفوض، أما عن كيفية تحقيق ذلك، يمكننا فقط التكهن. يتم تحضير أدوية غريبة في الشرق، عندما أكمل تحليل الحلويات التي قدموها لنا تلك الليلة في القصر، قد أتمكن من إلقاء المزيد من الضوء على الأمر".

تساءل "فاريل": "ولكن كيف كانت الخطوط والجروح تظهرت على جسد أنطوانيت؟".

رد "دارتوا": "للمرة الأولى تسألني شيئاً بسيطاً، هل تعلم أنه إذا تم لمس شخص تحت التنويم المغناطيسي بقلم رصاص على سبيل المثال، وتم إقناعه بأنه مكواة ساخنة ستظهر عليه بثرة وكل أعراض الحرق في المكان الذي تم لمسه؟ مول وآخرون

يتفقون على هذه النقطة مع القليل من الجدل. لقد تم إثبات ذلك تجريبياً في كثير من الأحيان. إذن، فقد تم جلد جسد الفتاة السورية، وذات أنطوانيت رغم وجودها في جسد مستعار احتفظت بما يمكننا أن نسميه بشكل تقريبي اتصالاً روحياً مع جسدها الأصلي؛ وإلا لم تكن لتستطيع العودة إليه في نهاية كل محنة. ومن خلال هذا الاتصال، طور جسد أنطوانيت نفس الجروح التي ظهرت على جلد الفتاة السورية؛ تماماً كما، بالتشبيه التقريبي، يظهر الشخص تحت التنويم المغناطيسي كل العلامات الخارجية للحرق من خلال الاقتراح. وعلامات الخلاخيل الثقيلة التي كانت ترتديها عروس الحديقة السورية ظهرت أيضاً على كاحلي أنطوانيت. والماركيز خلال مغازلته الفاشلة لأنطوانيت كانت لديه فرص كافية لإعطائها الدواء المنوم الذي ألمح إليه، بحيث يمكن أن يكون قد اكتسب تأثيره دون علمها. هذا، إلى جانب الأعراض الموضوعية، يقنعني أنه إذا لم يكن التنويم المغناطيسي التقليدي الذي نعرفه، كان على الأقل شبه تنويم مغناطيسي. وكما تعلم، هناك مركبات نباتية، إذا تم إعطاؤها بشكل صحيح، يمكن أن تؤدي إلى إطلاق جزئي للنسخة الروحية من الجسد، أو جوهره الروحي. متابعة ذلك إلى أصله ستقودك إلى دراسة السحر المصري، والعناصر التسعة التقليدية لكل جسد بشري حي.

سأترك كل هذا لك، صديقي العزيز، لدراسته، هذا الأمر المتعلق بالعلامات الناتجة عن الاقتراح والتأثيرات النفسية الأخرى. أنا لست محاضراً. وبالنسبة لملاحظات أنطوانيت العربية في نومها: عروس الحديقة، التي تم تجريدها من جسدها لفترة، سعت إلى جسد أنطوانيت. ومن خلال ذلك الاتصال الروحي الذي احتفظت به مع جسدها الأصلي، شعرت بالجلد الذي تم تطبيقه في الحديقة، وعبرت عن نفسها، من خلال شفتي أنطوانيت، كما سمعت".

نهض "دارتوا" من كرسيه وانحنى بانضباط رسمي: "والآن، إذا سمحتما، لدي تقارير للكتابة وأوراق للتوقيع. باريس لا تنام، حتى لو كنا نتمنى ذلك".

وبإيماءة حاسمة، أوقف "دارتوا" محاولات أنطوانيت لإبقائه ولو لدقيقة واحدة، ثم توقف عند الباب وقال وهو يلقي نظرة على "فاريل": "بالله عليك! أنت استمتعت بكل تلك المبارزة الرائعة بالسيف، بينما أنا، بيير دارتوا، اضطررت لارتداء بزة غوص لأقاتل، ثم استخدمت أداة حديدية! بصراحة، أحسدك".

ابتسم "فاريل" وهو يلمس ضماداته المؤلمة: "في المرة القادمة، سأترك لك المتعة يا صديقي. أعدك أن أكون أنا من يرتدي بزة الغوص بينما تتبارز أنت بالسيف".

ضحك "دارتوا" وهو يهز رأسه: "لا شكراً! مرة واحدة تكفي. الآن إذا سمحت، عليّ الذهاب. باريس لا تنتظر، وحتى الشيطان يحتاج إلى بعض الراحة".

وبعد أن أغلق الباب خلفه التفت "فاريل" إلى "أنطوانيت" التي كانت تبتسم ببراءة: "أعتقد أننا سنحتاج إلى راحة طويلة بعد كل هذا".

أجابت وهي تمسك يده: "نعم، لكن على الأقل سنستريح معاً هذه المرة".